المسرح

مسرحية

يسرى الأيوبي

الفصل الأول

المشهد الأول

(بهو في منزل الطيار المسرح المقدم راشد فتحي القريب من المطـار.. أزيـز طائرات ودوي قنابل ترتج لها الأبواب والنوافذ.. زوجة المقدم قلقة تتحرك بذعر تحشد الثياب الضرورية في حقيبة وتهيء نفسها وأبناءها خوف الطوارئ.. العمة راضية هادئة النفس تحفر الكوسا على طاولة أمام نافذة تطل على مـدخل البيـت والحديقة المزهرة.. وقد وضعت قربها أكبر سكين في المطبخ.. حازم فتـى فـي الثامنة عشرة يمسح بندقية، ونبيل صبي فـي العاشـرة يراقـب أختـه متـوتر الأعصاب.. ليلى في السادسة تلبس حذاءها.. ثم تأتي وتحتمي بأبيها)

نبيل: دعينا ندخل غرفة النوم يا أمي فهي آمن لنا.

الأم: (غاضبة) في مثل هذه الظروف لا يبدي الصغار الآراء بل يتركون الكبار يتصرفون بحكمتهم (لنفسها) آه كيف لي أن أحمي أبنائي!..أين راشد؟ لم تأخر؟ ليته لم يخرج اليوم من الدار.. آه ما أعجزني!..(بصوت عال) ليتنا لم نسكن هذه البقعة البعيدة عن البلد المعرضة للمخاطر!..

العمة راضية: إذا دخل أحدهم علينا فسأبعج بطنه بالسكين.

حازم: (ملتهب الخيال بمزيج من الفرح والقلق) ماذا تفيد السكين؟. قـد ينـزل جنود العدو بالمظلات فيجب أن نكون مستعدين لحرب الشوارع.

الأم: (متبرمة) كفى! هل تحسب الحرب دعابة؟ إن الذين يحسنون الحرب فـي هذا البلد قد شلت أيديهم عن العمل، وأنت تريد أن تكسب الحرب ببـضعة دروس عن البندقية لا تتقنها جيدا!..

حازم: قد يستدعون والدي للخدمة.

نبيل: سيكون هذا عظيما.. آه كم أشتاق لأرى والدي يقود طائرة!..

الأم: بعد عشرة أعوام من التسريح؟. إنني أشك أنه يستطيع اليوم أن يقود طائرة.. يا لخسارة ما انفق العمر في تعلمه..

العمة راضية: (لحازم) أتعرف كم دفع الشعب ليجعل من والدك طيارا ممتازا؟

حازم: نصف مليون ليرة.. لقد سمعت والدي يقولها يوما.

الأم: نصف مليون ليرة ليصبح في النهاية بائع مازوت.. ألا نـستاهل كـل مـا يصيبنا؟ (رنين تلفون، تهرع إلى السماعة) من؟ أبو حازم؟ نعم نحن بخير.. أنت عند المقدم سميح؟ ألا يمكنك الحضور؟ أذاهبان أنتما إلى وزارة الدفاع؟..

(يهدج صوتها) آه، لا شيء، لا شيء.. ليوفقكما الله.. أنـت تعلـم.. إننـي لا أساوي شيئا بدونك.. لو كنت قربي لمـا احتملـت الـشعور برهبـة المـسؤولية ولأحسست إنني في مأمن أو لعرفت على الأقل مدى الخطـر.. أخبرنـي كيـف أتصرف؟. وحازم ماذا أفعل به؟ أخشى أن يقوم بعمل متهور.. لم أعـد أسـتطيع

السيطرة عليه.. حازم تعال وكلم والدك.. دعني أسجل رقم تلفون المقدم سـميح.. قلم، قلم.. (تفتح درجا ثم آخر.. ثم تكتب الرقم)..

حازم: نعم بابا.. ولكن يا بابا لم أسلموني بندقية؟ أنا كثير الحماس قليل التجربـة! مع احترامي لرأيك يا بابا.. (أزيز طائرات وانفجار قنابل) لم يحدث شيء..

الأم: (بذعر) احملوا الفرش والوسائد لنغلق الأبواب والنوافذ..هيا ساعدوني!..

حازم: (على التلفون مازحا) إن أمي تغلق الأبواب والنوافذ بـالفرش.. بابـا إذا طلبوني للقتال فلن أتأخر.. لم أعد طفلا يا أبي.. أنا أهرب من فحص البكالوريا يا أبي! ولكن من يبالي بالبكالوريا والخطر محدق؟ سترى أنني فـي العـام القـادم سأنجح بامتياز بعد أن يعلق لي في هذا العام وسام بطل.. كيف لا أتصرف بشيء قبل ان تعود؟ لن أفعل شيئا سوى أن أنتظر، أما إذا طلبوني فسألتحق برفاقي.. ها هي أمي..

الأم: قلت له ذلك.. إنه عنيد لا يصغي.. راكب رأسه.. لا يدرك الخط الفاصل بين التهور والشجاعة.. إن إلقاءه في المعركة دون تـدريب كإلقـاء فتـى لا يحـسن السباحة في بحر هائج.. ليتك هنا إنه يقتنع منك أكثر مني.. يقترح المقدم سميح أن ننزل في ضيافته؟ لن أترك المنزل.. لقد أرسلت جارتنا أبناءها إلى دمـشق عنـد أقاربهم فنزلت قنبلة في المنزل الذي أرسلتهم إليه وحسبته آمن من بيتهـا.. تلفـن

إلي كل نصف ساعة وأنا سأفعل ذلك.. إنني آنس بصوتك وكأنـك قربـي.. مـع السلامة، أرى وجهك بخير.

العمة راضية: أنت ووالده تفسدان الفتى وتعلمانه الجبن.. قل لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. اتركا الفتى يصارع الحياة وتصارعه.. لو كانت أمي تتصرف مثلكما في مواقف كهذه لما نشأ راشد رجلا لا يهاب خطرا ولا يخشى إنسانا.

الأم: قد يهب الدين مثل هذا الاستسلام للقـدر وقـد يهـب الجـرأة والـشجاعة والتضحية.. ولكن النصر له عوامله الواقعية، ولا يحوزه الإنسان بالغيبيات.. يجب أن يتعلم أبناؤنا كيف ينتصرون لا أن نعلمهم كيف يموتون.

* * *

الفصل الأول

المشهد الثاني

(في شرفة منزل المقدم سميح داوود.. وهو ضابط مدرعات وشريك المقدم راشد في عملهما الجديد.. المقدم راشد يضع على عينيه منظار ميدان يكرر الطرف في السماء والطائرات العدوة تهدر..

المقدم سميح: أتحسبهم يستدعوننا للخدمة؟ (يعطي المنظار إلى مضيفه) انتهـ ت الغارة..

المقدم راشد: ما الفائدة، ما الفائدة؟ كم منا يصلح للخدمة اليوم؟ لقد أصاب الانحلال أكثرنا، إنني أشعر بالغثيان عندما أذهب إلى نادي المتقاعدين فأرى رفاقنا ولـ يس لهم هم سوى أن يشووا اللحم ويحتـ سوا الخمـ ر ويلعبـ وا الـ ورق ويتـ شاجروا ويتضاربوا ويلعن بعضهم بعضا.. لقد تفهوا ورخصوا وقليلون من استفاد من وقته علما أو عملا.. حتى لياقتهم البدنية لم يحتفظوا بها بل ترهلت بطونهم وفـ ارقتهم حيويتهم، فما الفائدة من استدعائم للخدمة؟ إنهم لن يكونوا الآن سوى أداة تشويش.

المقدم سميح: ليسوا جميعا على هذه الصورة.

المقدم راشد: إن أفضلنا قد فقد كفاءته وحماسه.. من يستدعون؟ العقيد أحمد الكاتب الذي أصبح تاجرا في الأردن، أم الملازم لطفي عامر الذي يعمل سمسار بيـ وت،

أم المقدم سعيد عوني الذي افتتح مطعما، أم الرئيس جميل إبـراهيم الـذي درس الحقوق وعين موظفا في الدولة، أم إخواننا رواد النادي؟

المقدم سميح: هل نبقى إذن إمكانيات مهدورة في هذه الظروف العصيبة؟

المقدم راشد: لقد اقترفت الجريمة في حقنا، وهيهات أن يعود للحياة من نالته يـد الفناء.. كل عام مضى علينا خارج الجيش أبعدنا عن الانسجام فيه.. هذه حقيقـة مرة طالما حاولت أن أقنع نفسي بها فلا تقتنع.. فالجيش كان محطّ آمالي لأغـسل عارا لحقنا في الماضي، والطيران كان هوى في دمي.. ولم أنظر يوما إلى طائرة إلا تملكني شعور عاشق يرى حبيبته وقد نالها سواه.. أذكر إمكانياتي المهـدورة، أذكر الدورات في العالم، أذكر التدريب فـي الثلـوج وأذكـر دهـشة أسـاتذتي لملاحظاتي الجيدة.. فلو طلبوا مني تعيين حرج أذكر لهم عدد الشجر فيـه.. لـو كنت رأيتني يوما أتلاعب بالطائرة؟

المقدم سميح: ما الفائدة من ذكر الماضي؟ كانت أحلامنا كبيرة فخنقت في مهدها.. لو كنت باق حتى الآن لكنت قائد المدرعات.

المقدم راشد: يتملكني إحساس يائس رهيب وأنا أرى كل ما أعددت له نفسي ومـا أنفقه علي شعبي يغرق في براميل المازوت.. ويسوء خلقي وأثور بغيـر سـبب ويعضني الندم حتى أكره وجودي..

المقدم سميح: لم يكن الذنب ذنبنا حتى يعضنا الندم.

المقدم راشد: الندم بسبب ثورتي التي تخطئ طريقها فتنال أحيانا زوجتي وأبنائي.

المقدم سميح: لو كنا خفضنا أكتافنا لكنا اليوم في المقدمة، ولكان لنا شرف الـدفاع عن أرضنا!..

المقدم راشد: ليس هناك من ألم يعادل ألم الرجل الذي يجلس في غير مكانـه.. إن وقفة الذل التي أقفها آخر كل شهر لأقبض راتب تقاعدي وأنـا فـي أوج شـبابي تحطم أعصابي.. لم أنسجم معها أبدا رغم مضي عشرة أعـوام.. (تـدخل فتـاة صغيرة)

الفتاة: بابا، السيارة جاءت..

المقدم سميح: هيا إني قادم.. المنزل عال ولم نسمع بوق السيارة..

المقدم راشد: ولكن المناظر منه تخطف القلب، لم أر في حياتي الغوطة تبدو بكـل حدودها وروعتها.. لقد تملكني غضب وحشي وأنا أرى دمـشق وكأنهـا عبلـة الجميلة وقد انقض عليها قطاع الطريق لسبيها..

المقدم سميح: (باسما بمرارة) سيفنا مبتور، وأيدينا مشدودة إلى الظهر..

المقدم راشد: (يهبط الدرج) سنرى ما يمكننا فعله.

المقدم سميح: لا أظنهم يردون مطلبنا والخطر محدق.

* * *

الفصل الأول

المشهد الثالث

(ازدحام شديد أمام باب وزارة الدفاع.. رجال بعضهم مسلحون وبعضهم عزل.. أصوات مختلطة، فوضى، تدافع .. رقباء يوزعون سلاحا ويدفعون النـاس إلـى الخلف..)

رجل(1): لماذا لا تعطونا السلاح؟

الرقيب(1): وزع السلاح.

الرجل(1): لم يوزع السلاح على حينا.

الرقيب(1): لم أتلقّ أوامر.

الرجل(1): لماذا يُعطى أُناس سلاحا ولا يُعطى للآخرين؟ هل الـوطن لفئـة دون أخرى؟

الرقيب(1): نعطي من نثق به.

رجل(2): أزمة ثقة والعدو على الأبواب؟

رجل(3): بأي المراكز نلتحق؟

الرقيب(1): بمركز الحي.

الرجل(3): ذهبت فلم أر أحدا..

الرجل(1): من يدافع عن أهل حينا؟

الرقيب(1): أنعطيكم السلاح كي تغدروا بنا في ظهورنا؟

الرجل(1): من يفكر بالغدر؟ نريد أن نحمي أطفالنا.. شو ضاعت النخوة من بـين الرجال؟

الرقيب(1): لم نتلقّ أوامر.

الرجل(2): ما هذه الفوضى والارتجال؟ حياتنا مهددة، بلادنـا مهـددة، وجودنـا مهدد.. بمن تثقون إن لم تثقوا بالشعب؟ بمن تنتصرون إن لم يؤازركم الشعب؟

الرقيب(1): إنكم لا تبتغون السلاح كي تحاربوا العدو، بل لتحاربونا نحن به.

رجل(4): يا ناس، يا جماعة، نحن ما لنا حساب، مالنا إرادة؟ أنتم قيمون علينـا؟ كل واحد فينا رجل ينطح الثور، يقرط رأس الحية، تفرضون علينا أن نلتزم بيوتنا كالنساء؟

(يدخل المقدم راشد والمقدم سميح يصارعان طريقهمـا بـين الـدُقّاع يُخرجـان هويتهما ليتفحصها الرقيب)

المقدم راشد: نريد أن نقابل رئيس الأركان.

الرقيب(1): الرئيس مشغول لا يقابل أحدا.

المقدم راشد: نائبه! مدير الاستعلامات، أي ضابط مسؤول..

الرقيب(1): طيب، سأرى (يدخل)

الرجل الرابع: (للمقدم راشد) سيدي ، قل لهم إن دخلت بأننا نريـد سـلاحا.. إن منطقتنا لا توجد فيها بندقية واحدة.. لقد وضعوا علينا بضعة حراس مسلحين، فهل الحرب موجهة لنا أم للعدو؟ هل هدفهم حمايتنا أم تهديدنا؟ نحن فقراء فإذا كـانوا حقا يدافعون عن مصالح الفقراء فلماذا يخشوننا؟

* * *

الفصل الأول

المشهد الرابع

(غرفة في وزارة الدفاع.. أربعة ضباط مكاتبيون)

ضابط(1): لم يجد العدو فرصة أكثر ملاءمة له من تلك الفترة التي انقـسم فيـه الناس إلى قسمين.

ضابط(2): إن مشكلتنا أننا طرحنا قضية الاشتراكية قبل التحرر التام.

ضابط(3): هل كانت البرجوازية تحررنا لو بقيت؟

الضابط(2): لم أقل هذا.. ولكن إسرائيل تحاربنا مجتمعة بكل فئاتها حول هـدف واحد، هدف عدواني، إلا أنه هدف موحد على كل حال.. أما نحن فنجزئ قوانـا مرغمين، نصفه هنا ونصفه على الجبهة.

الضابط(3): أنت لا تزال تحمل رواسب برجوازية، إن جيشنا سينتصر.. ومصر أيضا توقع هزائم ماحقة بالعدو..

الضابط(2): أنا أحمل رواسب برجوازية! هل معنى الاشتراكية أن نغمض عيوننا عن واقعنا؟

الضابط(1): أنا لا أثق كثيرا بما تقوله الإذاعات، لقد اعتدنا المبالغـة فـي كـل شيء.. بكل أسف..

الضابط(3): (للأول) أنت تكره انتصار مصر لأنك أوذيت فـي فتـرة الوحـدة ودخلت السجن.

الضابط(1): (غاضبا) أنا عربي! مؤمن بعروبتي، هل أكره انتصار شعب مصر لأن حريته مسلوبة بحكم مطلق؟.. لتنتصر مصر وسأتراجع حتى عـن قناعـاتي الثابته بأن الأمة القوية هي الشعب الحـي.. (يُـسمع هـدير طـائرات.. يـذهب الضابط(3) إلى النافذة.. يرفع رأسه إلى السماء ثم يجيلها بالبنايات المجاورة)

الضابط(3): غارة ثانية.. هل يحارب من يملك هذه القصور؟ يريدون أن يـذهب الجيش الاشتراكي لينتحر على الجبهة فيعود للرأسماليين نفوذهم.. إن أحدا منهم لا يتحرك.. كمنوا في بيوتهم ليتآمروا.. لن يتعلم الناس إرادة القتال حتى تتدمر هـذه البيوت.. المآسي وحدها هي التي توقظ الشعور..

الضابط(2): إن هذه المدينة لا يسكنها الرأسماليون فقط.. أنت تتكلم بهذه اللامبالاة لأن عائلتك بعيدة عن الخطر، وثانيا لأنك تستطيع الحياة في كل مكان حتى ولو لم يكن لسوريا وجود.. ليس لك أرض وليس لك بيت وليس لك زوجة وأطفال..

الضابط(3): عندي فقط إيماني بالاشتراكية وهذا يكفي.

الضابط(3): حتى دون أرض؟

الضابط(3): إن كان كسب المعركة يهدد النظام الاشتراكي فلتذهب الأرض وليبق النظام.

الضابط(2): سيدي، مع احترامي للاشتراكية وإيماني بها أنا الآخر أقول أن النظام لا يعيش بدون أرض.

الضابط(1): سيدي، ألن تنتصر الاشتراكية حتى نتساوى جميعنا في العيش تحـت الخيام؟ لقد أُسلمنا أمانة ثقيلة تجاه الأمة.. إن أية هزيمة تفقـدنا لا الأرض فقـط ولكن إيمان الشعب بنا.

الضابط(3): ولو انتصرت أية مؤامرة داخلية لأبادونا ودمـروا كـل المكاسـب الثورية.

الضابط(2): ولو انتصرت إسرائيل لأضافت مآسي الاحتلال إلى كل هذا.

الضابط(1): ما الفائدة؟ نقاش بين أربعة جدران.. هل يستـشيروننا إذ يقـررون أمرا؟

الضابط(2): سندفع باهظا ثمن هذه العزلة ولو كنا نحمل أرقى عقيدة في العالم.

(يدخل الرقيب(1) ويخاطبه)

الرقيب(1): سيدي، المقدم راشد فتحي والمقدم سميح داوود يبغيان مقابلتك.

المقدم جميل قاسم: ليتفضلا.

الضابط(3): إن بيني وبين المقدم راشد فتحي عداء، يعتقد بأنني وشيت به أثنـاء الوحدة فسُرح.. سأخرج قبل دخوله (يلتقيان عند الباب فيتـشافنان دون أن يكلـم أحدهما الآخر)

المقدم راشد: (مسلّما بحرارة على المقدم جميل قاسم) لقد كدر مزاجي رؤيـاه.. (مشيرا إلى الباب) كان حارسا للباب عندي ويكتب عني التقارير.

المقدم جميل: أصبحت له اليد العليا.

المقدم راشد: كيف للإنسان أن يتعاون مع من غدر به؟ (يتأوه)

المقدم سميح: جئنا لنضع نفسنا تحت تصرف الجيش.

المقدم جميل: بحثنا هذا الموضوع.. ولكن يبدو أن هناك تيارات قويـة معارضـة لاستيعاب العناصر التي أُبعدت من الجيش.

المقدم راشد: حتى في هذه الظروف؟

المقدم جميل: سيدي، اتركها لله.. إن انتصرنا تكون معجزة.. لقد جررنا لمعركـة لم نتهيأ لها.. إن حملنا ثقيل وإرادتنا موزعة.. كل فرد فينا حزب.

المقدم راشد: هذه جريمة والله.. اجمعوا الناس، انزلوا إليهم، ثقوا بهم.. كل إنسان له مصلحة في حماية البلد.. البلد هي الأهل والأطفال وما نملـك، هـي كرامتنـا وإرادتنا ووجودنا.. ما فائدة توزيع الاتهامات بعد خراب الدنيا؟

المقدم جميل: سيدي، كما ترى.. لا أحد يملك حق تقرير الأمور.. وكـل شـيء سائب مائع..(متداركا) إنهم مخلصون ولكنهم لا يستهدون بخطة موحدة.

المقدم راشد: لن تفيد النوايا الطيبة.. الشعب يرى بعينيه ويحكم علـى النتـائج لا على النوايا.. وله الحق في ذلك.. لقد أمسك بي رجل قبل أن أدخل وقال لي" هـل الحرب موجهة الينا أم للعدو؟"

المقدم جميل: كل ما تقوله حق يا سيدي المقدم ولكن ظروفنا (رنين تلفون، يمسك به) لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله!..

الضابط(1): (بذعر) ماذا هناك؟

المقدم جميل: ضُربنا ضربة شديدة في المطار.. لقد دُمرت معظم طائراتنا!.. كانوا يكتمون الخبر ولكنه حقيقة، حقيقة ما أُذيع عن وضعنا.

الضابط(1): أي أن سلاح المدرعات بقي وحده في المعركة!

المقدم سميح: المدرعات دون طيران كالعملة دون تغطية.

المقدم جميل: مدرعاتنا وصلت صفد.

المقدم راشد: (يلطم جبينه) الأمر أخطر مما تتصورون. أخطر! نحن في عصر معارك الطيران.. الطيران هو الذي يقرر المعركة.. كيف يدمر الطيران؟ كيف لم يُحتاط للأمر؟ كيف توضع الطائرات مُعرضة كأهداف مكشوفة؟ كيف لم تُوزع؟ لِم لم تبدأ هي الهجوم الصاعق؟ ماذا كنا ننتظر؟

المقدم جميل: سيدي، إن الانقلابات المتتالية وسرعة ارتقاء الضباط أفقدت الجيش الكفاءة العسكرية.

المقدم سميح: سنبكي الدموع دما لما نجرم في حق أنفسنا.

الضابط(1): لسنا نحن المسؤولين وحدنا عن الأخطاء.. لقد ورثنا تركـة مهلهلـة كثيرة الثقوب.. ماذا نرقّع فيها لنرقّع؟

المقدم راشد: الشعب لا يسمع الأعذار.. الناس يسألونكم لِم تتركونهم لمـصيرهم؟ أنتم ترفضون أسباب القوة لأنكم لا تثقون بأنفسكم.. ما قيمة القيادة إن فقدتم الشعب الذي تقودونه؟ ليس أخطر من سلبية الشعب، ليس أخطر منـه إذ يـنفض عـنكم يائسا، ويصبح حاله سيان أحكمتموه أنتم أم حكمه العدو.. إنه يخنقكم بالعزلة، ولن تكسبوا في صفوفكم إلا المنافقين والمنتفعين..

المقدم سميح: إن حالنا خطر لا شك فيه ولكننا لم نفقد كل شيء.. فكروا فـي مـا نقوله.. ولا تطيلوا التفكير.. سنذهب إلى بيوتنا وننتظر ما تقررون.. إن هذا الكلام لا نقوله غدا لأننا لسنا مجبرين على احتمال تبعات أخطاء غيرنا..

المقدم راشد: بل سنقوله في أي وقت يحتاج فيه إلينا البلد.. وسنعتبر شـرفا لنـا الدفاع عن شعبنا ولو عدنا جنودا صغارا في صفوف الجيش.

* * *

الفصل الأول

المشهد الخامس

(منزل المقدم راشد.. البهو نفسه، أم حازم تنزل الأباجورات وتفتح زجاج النوافذ، ليلى تحمل الصحون وترتب المائدة، حازم يقرأ في كتاب عسكري لوالده، ووراءه مكتبة حافلة بالكتب السياسية والعسكرية.. البندقية معلقة على المسمار نفسه الـذي علقت عليه كمنجة، نبيل يتفحصها في غفلة من أخيه فينهره حازم)

حازم: إياك أن تلمسها.. إنها معبأة مهيأة.. لمسة على الزناد وينطلق الرصاص.

أم حازم: (لنبيل) قم وساعد أختك، إن يدي مقيدتان، لا أحسن عملا وأنا قلقـة.. قم يا حازم اسكبوا وكلوا.. إني لا أشتهي وسأنتظر والدك.

حازم: أمرك يا سنيورة، يا أحلى أم في العالم.. (يضم رأسـها ويقبلـه) إنـك مضحكة وأنت قلقة، عيناك تدوران يمينا وشمالا وتقـومين بـألف حركـة غيـر ضرورية.

أم حازم: (باسمة تتكلف الغضب) منذ متى تعودت أن تنتقد الكبار؟ إنـك مثـال سيء لأخويك.

حازم: كنت أخافك وأنا صغير أما الآن فطولي يوازي طولـك مـرتين (يـرن التلفون، يمسك به) أنت عامر! مرحبا، وأنا لم يعد عندي صبر.. على نار.. من!

عزمي أيضا ورباح؟ مروا بي.. إن بين يدي كتاب وأي كتاب.. سـنقرأه معـا.. سيكون أمرا شائقا، ورائعا.. لا تتأخروا! إلى اللقاء!

أم حازم: كيف تعزم رفاقك في هذه الأوقات الحرجة؟ ليتلملم كل في بيته.. لا أريد أن أحتمل مسؤولية احد..

حازم: (مداعبا ذقن أمه) لماذا تأبين لي أن أخرج من طفولتي؟ لماذا لا تعامل أم عامر ابنها كما تعامليني؟

أم حازم: من قال لك إنها لا تشتكي من تصرفاته؟

حازم: ولكنها لا تقيد حركاته.

أم حازم: إنه ليس مندفعا مثلك.. أنت مستعد أن تتسلق جبلا دون أن يكون لـديك حبل للنزول.

العمة راضية: (منادية) يبرد الأكل ولا تأتون.

الأم: من يشتهي الطعام وفوق رأسه القنابل؟

العمة راضية: هل يعني هذا أننا لن نأكل؟ لو قامت القيامة لبقيـت أقـوم بعملـي كالمعتاد.

أم حازم: نيالك على قلبك! (تسير وحازم نحو المائدة) حازم: (مداعبا) عمتـي قطة متحدية، وأمي دجاجة قلقة (يضحكون) عينا عمتي مثبتتان حالمتان كعينـي قطة تشتهي أن تحوز القمر، وبؤبؤا عيني أمي لا يستقران ككرتـي بـنج بـونج

تتناوبان يدي لاعبين ماهرين.. ما لون عينيك يا أمي.. انظروا إليها، هل يستطيع الإنسان أن يعرف لون عينيها؟

أم حازم: يا لك من لساع.. علم أخويك الأدب.. شباب آخر الزمن!

حازم: زعلت يا ماما؟

الأم: فقد الأولاد الاحترام لأمهاتهم..

حازم: هل كنت تفضلين أن نحترمك ولا نحبك؟

أم حازم: بل أريد معا الحب والاحترام.

حازم: الحب رفع كلفة والاحترام وضع حواجز، الحب أمـان والاحتـرام حـذر وخوف.

أم حازم: يجب أن تخافني في بعض الأحيان..

حازم: لم يعد هذا ممكنا.. أصبحت أطول منك..

أم حازم: ولكنني أعقل منك، ولي عليك حق الأمومة والطاعة.

حازم: سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين (يضحكون)

العمة راضية: ما بكم! برد الأكل (طرق شديد على الباب) لا يتحرك أحـدكم.. سأنظر في العين السحرية..

حازم: (يتبعها) إنه عامر والرفاق.

صوت عامر: افتح يا حازم.

حازم: (يبعد كومة الفرش عن الباب ويفتحه.. عسكريون رقباء ومعهـم عـامر)

رقيب: حازم راشد فتحي.. اسمك مسجل في قائمة الاحتياط أحضر بندقيتك وتعال معنا..

حازم: (يسرع لهجا إلى حيث علقت البندقية) ها أنذا قادم.

أم حازم: إلى أين؟

حازم: كل رفاقي ذاهبون.. سأذهب معهم.

أم حازم: أيها المجانين، أتحسبون أنفسكم ذاهبين في رحلة كشفية؟

حازم: هل يقول عني الرفاق أنني لا أحسن إلا التشدق بالكلام؟

أم حازم: تلفن لوالدك.. ألم تعده أن لا تفعل شيئا دون إذنه؟

حازم: ليس لدي وقت، تلفني أنت له (يسرع إلى الباب، تتبعه أم حـازم، تـرى عامر والعسكريين) ألا ترين كيف أن أم عامر سمحت له؟

أم حازم: هل تعرف أمك بذهابك؟

عامر: كلا.

أم حازم: أيها الأحمقان، لستما مؤهلين لهذا العمل (تلتفت إلى العسكريين) أيجوز من الله أن يذهب فتيان غير مدربين إلى القتـال وتتـرك جمـاهير العـسكريين الممتهنين المسرحين في بيوتها تكش الذباب؟

رقيب آخر: سيدتي، ما نحن إلا جنود عاديون نفعل ما نؤمر به.

حازم: أين رباح وعزمي؟

عامر: سنمر برباح، أما عزمي فلقد رفض القدوم وسلم بندقيته.

حازم: يا له من جبان!

أم حازم: بل هو أعقل منكم.. أصغيا إلي وادخلا، ليس هذا الأمر من شأنكما.

حازم: لو أن كل ابن يصغي لأمه لما ذهب أحد إلى القتال.. (ينفلت منها) وداعا قبلي الجميع عني.

أم حازم: (متضرعة، ناشجة) عد يا حازم، عد يا حبيبي (يبتعد) انتظـر حتـى يأتي والدك، إنه أعقل منا جميعا (يبتعد أكثر) يا لتعاستي! يتركني راشـد حـين أكون في أمس الحاجة إليه.. يا لي من أم شقية! (تتلفن إلى منزل المقدم سميح) ألم يعودوا بعد؟.. (تبكي) ماذا أقول لك؟ حازم وعامر ذهبا للقتال.. كـان مـع العسكريين ومر بحازم..

زوجة المقدم سميح: أعلم أنك لا تدرين ما حدث.. يجب أن نمنعهما بأيـة وسـيلة ممكنة..

الأم: ليتلفن لي المقدم راشد حين يعود.. آه هذا الشقاء ما بعده شقاء.

* * *

الفصل الأول

المشهد السادس

(نادي الضباط.. فترة الغذاء.. ازدحام وجو متوتر.. دخول المقدم راشد والمقـدم سميح يثير دهشة من يعرفهما لندرة ارتيادهما للمكان.. يأخـذان مكانهمـا حـول مائدة.. يتقدم ندل فيسأله المقدم سميح عما يطبخ النادي في ذلك اليوم..

المقدم راشد: كنت أفضل الذهاب إلى البيت.

المقدم سميح: ماذا تفعل في البيت؟ هنا نبقى على صلة بما يجري نسمع قصة من هنا وقصة من هناك.

المقدم راشد: لا تتورط في حديث مع أحد.. في هذه الظروف يحسن أن يحتـرس الإنسان بما يقول.

المقدم سميح: أكاد أنفجر غيظا.

المقدم راشد: لقد فعلنا واجبنا فليتحملوا هم نتيجة تصرفاتهم أمام التاريخ.

المقدم سميح: سيدي، لا يريدون أن يحاربوا.. إنها مسرحية حرب ويعلـم الله مـا وراءها.

المقدم راشد: لا تترك لغضبك العنان، في كل مكان عيون وآذان..

المقدم سميح: إن رأيت منكرا فقومه بيدك فإن لم تستطع فبلسانك فإن لم تـستطع فبقلبك وهذا أضعف الإيمان.. فلنكن وسطا في دفعنا للمنكر.

المقدم راشد: النقيب فايز فوزي يقترب منا (بهمس) من جماعة الملك حسين..

النقيب فايز: (مسلما على المقدم راشد) من سنوات لم ير أحدنا الآخر. .

المقدم راشد: نعم، الجيش يجمع ويفرق. (معرفا) النقيب فايز فوزي مسرح بعـد 8 حزيران، المقدم سميح داوود مسرح أثناء الوحدة.

النقيب فايز: (يجلس) مسرحون! حيث أسير لا أرى إلا مسرحين. كنت الآن مع النقيب جبور غانم المسرح بعد 28 أيلول.

المقدم راشد: ناصري!

النقيب فايز: نعم.. كان يريد أن يقنعني بأن الوحدة لو بقيت لما تجرأت إسـرائيل على حربنا، ولكنها تواجهنا اليوم فرادى.. فقلت له" إن مصائبنا كلها بـدأت مـع الوحدة لأنه منذ ذلك اليوم بدأنا بالتفكك.

المقدم راشد: بالرغم أني سرحت أيام الوحدة إلا أنني أقول أن الوحدة ليست هـي المسؤولة عن مصائبنا ولكن المسؤول حينذاك هو الاستعانة بالرجعية ضد القـوى التقدمية وتصفية الجيش منها.

النقيب فايز: (بابتسامة صفراء) يبدو لي أنك تقترب من موقف جبور غانم.

المقدم راشد: كلا، ولكنني أردت أن أعطيك صورة عن موقفـك ومـوقفي مـن الناصرية.. أنت تحاربها لأنها أكثر تقدمية منك وأنا أحاربها لأنها أقل تقدمية مما ينبغي، لأنها فردية واقترفت أخطاء لا تُغتفر.

النقيب فايز: أي أنك مع الانفصال.

المقدم راشد: بل مع الوحدة الصحيحة، مع الشعب المصري والـشعب الـسوري، فمن لا يحب للعرب أن تكون لهم دولة اشتراكية كبرى؟

النقيب فايز: عجبا لمن يسمح لنفسه أن يُلدغ من جحر مرتين!..(يترك المائدة)

المقدم راشد: تصور أن تحمل كل تلك القوى سلاحا!

المقدم سميح: ولكن جيش إسرائيل يحمل أيضا كل تلك القـوى المتباينـة فكيـف يتلاحم ويوجه السلاح نحونا، لا كل فئة فيه نحو الأخرى؟

المقدم راشد: هناك قوتان سلبيتان تجعله يتماسك: الخوف واستقرار النظام.

المقدم سميح: لم أفهم.

المقدم راشد: الخوف لأنهم قلة بين كثرة معادية، فكل خلاف بينهم يُنـسى حـين المعركة، واستقرار النظام الرجعي الكاسح لكل ما عداه من قوى يوحد هدفهم فـي الداخل ويمدهم بمعونات هائلة من الدول العدوانية في الخارج.

المقدم سميح: ونحن؟ ألن نجد هدفا يوحدنا؟

المقدم راشد: صعب أن نجد هدفا يوحدنا؟

المقدم راشد: صعب أن نجد هدفا يوحد كل الناس لأننا لسنا في حالـة اسـتقرار نظام.

المقدم سميح: لننتظر إذن حتى ينبت الحشيش.

المقدم راشد: حين يستقر النظام الجديد لدينا ستكون له قوة إيجابية لا يملكها العدو.

المقدم سميح: رأينا وجربنا، ما عدت أثق بأحد.

المقدم راشد: إن بينهم رجال طيبون.. لقد تعرفت على المقدم جميـل قاسـم فـي السجن، إنه يفكر بطريقة تجعلني أتساءل أحيانا ما الفرق بيني وبينه. إن ما ينقص هذا البلد أن تتجمع القوى الجديدة وتجد ما تلتقي عنده.

المقدم سميح: هذا يحتاج إلى التخلي عن كثير من الأنانية.

المقدم راشد: الأنانية تزول عندما يصبح الحكم أمانة ومسؤولية وليس جرا للمنافع.

المقدم سميح: (هامسا) انتبه للنقيب فايز كم هو متحمس في الـدفاع عـن ملـك الأردن!.

النقيب فايز: (حاملا مجلة) انظر إلى هذه الصورة، ألا تطل منها ملامح أسد؟.. إن المسكين لم يحلق ذقنه منذ بدء المعركة.. إنه وجيشه من يقدم أكبر التضحيات.

المقدم راشد: من هذا الذي يجلس قبالته؟

المقدم سميح: أظنه النقيب جبور غانم.. أنا لا أعرفه شخصيا ولكننـي شـاهدت صورة له في صحيفة أثناء الوحدة. (يضع الندل صحاف الطعام على المائدة)

النقيب جبور: عميل وابن عميل.

النقيب فايز: جريمة المسكين أنه ملك في عصر تهتز فيه العروش.. ولكـن هـل ينكر أحد إخلاصه في حرب الصهاينة؟.. إنه وحده الذي يتضرر في هذه المعركة،

هو الذي يتحمل خسارة الأرض الخصيبة، وإعالة ألوف اللاجئين في حـال أيـة هزيمة، أما مصر فلا تخسر سوى الصحراء.

النقيب جبور: لن تخسر مصر.. إنها الحرب القاضية لإسرائيل!

النقيب فايز: إن شاء الله، ولكن مصر جُرت إلى المعركة..

النقيب جبور: مصر لا تُجر إلى معركة .. إنها هي التي تفرض المعركة.

النقيب فايز: سنرى.. سيذوب الثلج ويبين المرج.. مصر اسـتنزفت قواهـا فـي اليمن، ومن المشكوك فيه أن تحتمل معركة أمام إسرائيل.

المقدم راشد: (هامسا) أرأيت كيف أنني أحسنت صنعا في بتـر الحـديث معـه ووضعه عند حده؟ لم يعد يحسن الرجال سـوى المهـاترة. إن جعبـتهم مـلآى بالتبريرات لكل الحالات التي تلائمهم.. لم أجد رجلا يضع المصلحة العامة فـوق مصلحته الخاصة!..

المقدم سميح: صحيح والله. (غارة جديدة، هرج ومرج)

المقدم راشد: (واقفا) يجب أن أذهب إلى البيت.. أين الندل؟

المقدم سميح: تعال عندنا اليوم فلعلهم يرسلون في طلبنا.. الأمور تبدو في غايـة الخطورة..

المقدم راشد: سأذهب لأتلفن للبيت وأطمئن عنهم. (يذهب إلى حيث يوضع جهاز التلفون) ألو.. ماذا جرى؟ لماذا تبكين؟.. لست أفهم ما تقـولين مـن الـضجيج..

حازم! ماله؟ أخذوه مع الاحتياط! وعامر أيضا؟ ماذا أفعل؟ ماذا تظنينني أستطيع أن أفعل؟ كيف يمكنني أن أسحبه؟ ليسلمه الله! مستحيل، أقول لك مستحيل! أنا أذهب إلى وزارة الدفاع وأطلب إعفاءه من القتال! ماذا يقولون عني؟ اصبري يا امرأة، لا جدوى من الصراخ والعويل.. ليس الأمر بيدي، حتى لو كان ذلك لن أقدم عليه (ينهي المكالمة ويعود إلى المائدة ساهما)

المقدم سميح: ماذا جرى؟

المقدم راشد: سيدي إن ولدينا عامر وحازم أُخذا إلى القتال.

المقدم سميح: هذا خبر لم يكن على البال.. شيء جميل والله.. موفقون أنتم التوفيق! ما القصة يا أخي؟ أهي مؤامرة للتخلص من أبناء المدينة؟ لن أسكت أبدا.. في غيابك مر بي ضابط مدرعات مسرح وأخبرني أن ألوية المدرعات تعسكر في حلب بدل أن تكون على الخطوط الأمامية.. أية أمور تحيط بنا ولا ندري مداها؟ هل رفضوا انضمامنا للجيش ليأخذوا بدلا عنا أبناءنا الأغرار؟

المقدم راشد: ماذا تنوي فعله؟

المقدم سميح: سأسحب ابني.. وأنت؟

المقدم راشد: لن أفعل ذلك، لو أقدمنا على مثل هذا الأمر لما عاد لنا بعد اليوم رأي يسمع.

المقدم سميح: أنت ترمي بابنك إلى التهلكة ولن تجد في هـذا البلـد مـن يقـدر تضحيتك.. أما أنا فسأنجو بنفسي وعائلتي..

المقدم راشد: من المؤكد أن الأمور لن تكون سهلة في الجبهة، ولكـن المعركـة تصنع الرجال، وأريد لابني أن يكون رجلا.. لو سحبته لقتلت شيئا نـادرا فيـه، الرجل المبكر في أعماقه.

المقدم سميح: أتقول هذا بعد أن عرفت الوضع؟ ولكنك رجل متكبر! تدفع بابنـك إلى التهلكة.

* * *

الفصل الأول

المشهد السابع

(في منزل المقدم راشد.. المذياع يؤكد الخبر المشؤوم بسقوط القنيطرة فـي يـد العدو.. أم حازم تبكي بحرقة، المقدم راشد يلطم جبينه بيده وهو يتأوه، يتناول علبة سجائره.. أصابعه ترتجف بشكل عصبي.)

المقدم راشد: إن الطريق غدا مفتوحا لدمشق!

أم حازم: حازم! يا ويل قلبي لو حدث له مكروه!

المقدم راشد: يا للعار!

أم حازم: لو كنت سحبته كما فعل أبو عامر لابنه..

المقدم راشد: (غاضبا) كفى تنظرين إلي بعين اللوم!.. أفي كل يوم نعيـد نفـس المشهد؟

أم حازم: (ترفع عينيها إلى السماء) رب لا تفجعني به! أنت تعلم أنني لا أحتمل العذاب ماذا جرى له، ألهذا الشقاء نربي أبناءنا؟ (تبكي بصوت عال)

المقدم راشد: ليتنا متنا جميعا قبل هذه الهزيمة.. أصبحنا تحت رحمـة العـدو، لا جبل يحمينا ولا حصن يدفع عنا الأذى.. جبال الجولان وحصونه المنيعة أصبحت بيد العدو.. هل تفهمين؟ في كل لحظة يمكن أن يدخل دارك جنود الأعداء.. مـاذا ينتظر رجل مثلي سوى حبل المشنقة؟ هجر الفرح الأرض وليس أمامنا إلا الدموع

والإهانة والذل.. قد يصل الجهل حد الإثم، قد تصل الأنانية حد الجريمة، قد تصل الفوضى والارتجال حد الخيانة.

أم حازم: آه، إن الصداع ينقر رأسي (تنظر إلى الكمان المعلق) هل أسمعك يـا حبيبي تنقر على أوتار كمانك الحبيب؟.. كنت أقول لك إنه يوجع رأسـي.. عـد واعزف عليه برداءة، إنه لن يوجع رأسي أبدا!

العمة راضية: (تنهي صلاتها في طرف الغرفة) لو كنت تصلين لتعلمت الصبر!

المقدم راشد: إنها مع الأسف لا تحمل فضائل المجتمع القديم، ولم تكون لنفسها بعد فضائل المجتمع الجديد.

أم حازم: كلكم تلومونني.. لن أعجبكم حتى أصبح رجـلا.. ترضـيني فـضائل جنسي، إن هذه الفضائل هي التي ستزرع السلام على الأرض.. نحن الذين نشقى في حمل الأبناء وتربيتهم.. ليس من أم على الأرض ترضى أن يهدر ابنها.. لـو حكم العالم النساء لتخلصت الدنيا من الحروب!

المقدم راشد: (ساخرا) رأينا نساء كجولدا مائير متحمسة أكثر من الرجال للتوسع والعدوان.

أم حازم: هذه ليست امرأة وليست أما، إنها مسخ تتطاول ليبز قـسوة الرجـال.. امرأة ممتلئة بعقد القبح والاضطهاد، إنها كتلك الفتاة التي كانت تخنق في الخفـاء

القطط والعصافير لتقنع نفسها بأنها غير ضعيفة.. أهـذه امـرأة تحـرص علـى السلام؟..

المقدم راشد: إن بيننا رجال كثيرين لم يكونوا يريدون حربا ولكن هذا حدث رغم ذلك.. الحرب فرضت علينا، العدوان يلاحقنا كظلنا.. ينتهز في كل لحظة ضـعفنا لينقض علينا، ليتوسع على حسابنا.. أراضينا هي التي تنسل من تحـت أقـدامنا، اللاجئون من أبنائنا، على كاهلنا يقع عبء تصفية الاستعمار من منطقتنا، فينهـار من العالم.. جيلنا لن يعرف الهدوء، منطقتنا هي الجبهة الأمامية لهذه المعركـة.. إن لم ندرك هذا ونعلّم النفس على الصبر عليه كنا كشارب الأفيون يسبح في أحلام السلام الذهبية بينما الحوت يبتلعه.. ليس لنا مناص من المعركة نخوضها، فإن لم نخضها مسلحين بقوة الإرادة والاستعداد خضناها مستسلمين صاغرين.. وضحايانا في كلا الحالين واحدة.

العمة راضية: يصيبنا ما كتب الله علينا.. أجل الإنسان في لوح القدر لا يتقدم ولا يتأخر يوما..

المقدم راشد: من ذا الذي لا يتمنى السلام؟.. الإنسان أثمن ما في الوجود والأبناء أثمن ما يملك الإنسان في الدنيا.. (يدخل نبيل وليلى قلقين)

نبيل وليلى: مدرعات على الطريق..

العمة راضية: إي والله إنها تهدر هدرا. (يذهب أبو حازم وزوجته إلى الشرفة)

المقدم راشد: إنها مدرعاتنا.. تعود! ما بالك ترتجفين؟

أم حازم: لست أدري لقد أصابتني رعدة..

المقدم راشد: أما أن يعود أبناؤنا هكذا، فالموت أهون!..

أم حازم: أحس بقلبي يتهاوى في مكانه، جس يدي كم هي مثلجة ! يـسمع رنـين تلفون، تركض أم حازم إلى الداخل) من؟ كلا، حازم لم يصل، مـن حـضرتك؟ رباح، كنتما معا في الجبهة؟.. أنت تسكن قريبا منا ؟ متى رأيتـه لآخـر مـرة؟ ليطمئنك الله خيرا! ليتك قربنا وتحدثنا عما جرى.. أنت تعب، طبعا يا بني لا شك أنكم عانيتم كثيرا.. عندما ترتاح.. أهلا وسهلا..(تضع الـسماعة باضـطراب) لماذا أنا مضطربة هكذا؟

المقدم راشد: (داخلا) من على التلفون؟

أم حازم: رفيق لحازم كان معه في الجبهة يسأل عنه إن كان قد وصل.. يقول إنه رآه صباح هذا اليوم..

نبيل: بابا عمو أبو عامر في الباب..

المقدم راشد: ليتفضل.. أهلا وسهلا..

المقدم سميح: ما بك مستريح في بيتك؟ البلد قايمة قاعدة.. مظاهرة فـي شـارع جمال باشا تطالب بالسلاح فرقت بالقوة.. يقولون إن الحكومـة هربـت وستـسلم

دمشق.. تُركنا لمصيرنا يا أبو حازم.. عاد كثير ممن كانوا في الجبهة.. ألم يعـد حازم؟

المقدم راشد: (بفتور) لم يعد بعد.

المقدم سميح: يقول اللاجئون الآتون من القنيطرة أن نبأ الاستسلام قد أذيع قبل أن أن يدخل البلد عدو واحد..

المقدم راشد: ولماذا ترك الناس بيوتهم؟

المقدم سميح: بسبب الذعر.. اللاجئون ملـؤوا البلـد، وحُـشدوا فـي المـدارس والجوامع..

العمة راضية: لا حول ولا قوة إلا بالله!

نبيل: بابا، شاب يدعى رباح يود رؤيتك.

أم حازم: أنا طلبت منه القدوم لأطمئن عن حازم.

المقدم راشد: ليتفضل!..

رباح: (مسلما)

أم حازم: تفضل، تفضل يا بني، لقد أزعجناك بالمجيء وأنت تعب..

رباح: (يجلس) أبدا، عاد الكثيرون سيرا على الأقدام ولكن صـدف أن رآنـي قريب لي في سيارة جيش فركبت معه..

أم حازم: هل كان معك حازم؟

رباح : فقدته في هرج الانسحاب..

المقدم راشد: أخبرنا يا بني عما حدث..

رباح: ماذا أخبر؟.. أنا شخصيا لم أواجه عدوا واحدا ولم أطلق رصاصـة مـن بندقيتي.. كنت وحازم في الخندق ننتظر لحظة القتال ولكن هـذه المواجهـة لـم تحدث، فبدلا عنه أغارت علينا الطائرات العدوة بالقنابل والصواريخ، لقد انفجـر صاروخ قربنا تماما وغطانا التراب الذي نثل من الحفرة حيث وقع الـصاروخ.. كنت لا أدري أحي أنا أم ميت وبقيت دون حراك وكنت أسمع هـدير الطـائرات وأصوات الانفجارات بحالة أشبه بالحلم، وبعد فترة لا أدري مداها، رفعت رأسـي ورأيت حذاء حازم يطل من بين التراب وظننته ميتا فأخذت أحسر عنـه التـراب فرأيته يرفع رأسه ويقول" أنت حي؟ "وقبل أحدنا الآخر وضحكنا لنجاتنا.. صمت)

المقدم راشد: وماذا كان بعد ذلك؟ (لأم حازم) لماذا تبكين؟ (تكفكف دمعها)

رباح: كنا ننتظر هولا أكبر وكنا مستعدين لاحتماله.. كنا ننتظر المواجهة ولكن ما حدث هو هذا الموت الطائر الذي كنا نقف عاجزين دونه.. وخاب أملنا خيبة كبيرة حين جاء الأمر بالانسحاب، وما تلا ذلك كان فوضـى لا توصـف.. فوضـى لا توصف.. ترك الكثيرون أسلحتهم ليتخففوا ولـم أكـن أرى حـولي إلا جموعـا تركض، فانجرفت معهم وغاب عني حازم..

المقدم سميح: سيصل في يوم أو يومين..

المقدم راشد: إنه لأمر محزن..

رباح: وفي طريق عودتنا كانت الطائرات تغير علينا وترمينا بالقنابـل وتفـرش الأرض بالجثث، والمدرعات التي سلمت من الدمار تنسحب وشاهدت وأنـا فـي السيارة مع قريبي آمرنا، كان يركب حمارا وقد نزع عن كتفيه رتبه العسكرية..

(المقدم راشد والمقدم سميح ينظر أحدهما إلى الآخر نظرات ذات معنى)..

* * *

الفصل الثاني

المشهد الأول

المقدم راشد: (للعمة راضية) أين أم حازم؟

العمة راضية: كالعادة، ذهبت لتبحث.

المقدم راشد: (لائما) إلى متى تجرجر نفسها في كل مكان من الصليب الأحمر، إلى وزارة الدفاع، إلى معسكرات الجيش، إلى بيوت الضباط.. كل من يضع فـي أذنها كلمة يوقد في قلبها أملا جديدا.. إنه ليس بين الأحياء الذين عادوا وليس فـي قائمة القتلى، وليس بين الأسرى.. أتريد أن تفعل ما فعلته أم زميل لنا فقد عام 48 فبقيت أمه عشرين عاما تنتظر أوبته حتى وافاها الأجل؟..

العمة راضية: دعها تنفس عن قلبها.. إنها تعتقد أنك تخجل مـن الإلحـاح فـي السؤال..

المقدم راشد: ما فائدة الإلحاح؟ أيخفون مصيره عنا ليكيدونا؟ أتنكر إسرائيل وجوده بين الأسرى وتعترف بغيره لتنتقم منا؟ متى تعقل هذه المرأة؟ متى تستسلم للواقع؟ متى تعود لبيتها؟ ألم يعد لزوجها وابنها وجود في حياتها؟ تتعس وجود الباقين من أجل من ذهب إلى غير رجعة.

العمة راضية: (تنفجر بالبكاء) لا تقل هذا، لا تقل هذا!

المقدم راشد: لقد مات!

العمة راضية: ليس معقولا..

المقدم راشد: مجنونة أنت الأخرى.. لقد مات! لنعتبره هكذا ولينته هذا الموضوع!

العمة راضية: ليس من شيء يثبت هذا القول.

المقدم راشد: لقد مات على الأرجح بطريقة لم تترك له هوية.

العمة راضية: هل تعني؟ (تدخل الأم متعبه، يائسة، زائغة العينين)

الأم: استهديت اليوم إلى مقر الضابط الذي كان يقودهم فقال:" نعـم كـان تحـت إمرتي ولكنني لا أدري ما جرى له بعد الانسحاب، وحدث ما حدث واختلط الحابل بالنابل." قلت له:" هل بقي في الخندق أم انسحب؟." قال:" لا أدري" قلت له:" كيف لا تدري وأنت مسؤول عنه؟" إن الفتى لم يعد.. إنه مفقود" أتعرف ما أجابني؟

العمة راضية: ماذا؟ (يبقى المقدم راشد صامتا مطرقا)

الأم: قال لي:" إذا كان حيا فسيعود لك وإن كان ميتا فليرحمه الله.

العمة راضية: هكذا قال؟ ليبعث الله العمى لعينيه.

الأم: لم أعد أستطيع كبح جماح غضبي فصحت:" من تخاطب؟ إننـي أم، ثمانيـة عشر عاما وأنا أرقب نموه بالأمل والقلق والتعب، والخوف والدموع.. أتحـدثني عنه بهذه اللامبالاة كأنه محفظة خالية مفقودة! (تمسح دمعها ثم تـستمر) قـال متداركا:" لست أنت الوحيدة في مصيبتك.. هل سألت عنه في الصليب الأحمـر؟"

قلت:" في كل مكان." قال:" لعله كان بين الذين تحمسوا وأبوا التراجـع وأخـذوا طريقهم إلى صفد " قلت:" كيف لي أن أعرف إن كنت أنت آمره لا تعرف ؟ أنت مدرب.. صنعتك الجيش تتركهم شباب في عمر الزهور لم يمسك أحـدهم بيـده بندقية إلا قبل المعركة بأسبوع وتطلب النجاة لنفسك؟ " قال :" لا أسمح لك بإهانتي " قلت:" وقد انفجر غضبي وأخذت أجهش بالبكاء: أنت مسؤول عن حياته، أنـت مسؤول عن مصيره، أنت مسؤول عن الآلام التي أعـيش فـي جحيمهـا.. لقـد شاهدوك وقد نزعت رتبتك العسكرية، وركبت حمارا ونجوت بنفـسك بمفـردك لكأنك لست آمرا لهؤلاء الأغرار الذين وضعوا تحت حمايتك.. كيف لا تُسأل عما فعلت؟ كيف لا تُقدم للمحاكمة بما اقترفت؟.. (تنتحب) كـافؤوهم علـى تـسليم الجولان بإعطائهم مرتبا إضافيا.

العمة راضية: لينتقم الله منهم.

المقدم راشد: لا يجوز يا امرأة أن نلقي بالاتهامـات جزافـا.. يجـب أن نكـون منصفين، ونفهم ما حدث على حقيقته.. إن من طبع الإنـسان فـي المـصائب أن يبحث دائما عن كبش فداء.

الأم: أتدافع عنهم؟ لكأنما ليس ابنك هذا الذي ذهب ولم يعد..

المقدم راشد: هل يجب علي أن ألطم الخدود وأشق الجيوب حتى أعبر عن آلامي؟ هل يجب أن أفقد اتزاني وأتهم كل إنسان كي أكون أبا عطوفا؟ لنتعلم الصبر فـي

محنتنا يا امرأة ونتعلم الخروج منها، محنتنا الشخصية ومحنتنا العامة لأن آلامنـا لن تقتصر على ما حدث إذا استسلمنا لليأس.

الأم: الغارق لا يخشى البلل، ليس بعد عذابي عذاب.. أيريدون أن يقطعوا رأسي؟ ليفعلوا! اليوم قبل غد، ويريحوني من عذابي..

المقدم راشد: هناك عذاب أكبر، إن نصبح شعبا بلا وطـن، ألا تـدركين عنـف المأساة التي لن تنال، لو حدثت، لا سمح الله، فردا أو عائلة أو قوما بل أجيالا بعد أجيال؟.. لست أتألم لأن ابني ذهب للقتال، ولكن لأنه ذهب دون دربة ودون خطة ولم يحقق النصر.. قد يكون سائرا في الطريق فدهسته سيارة.. كنت سأبكيه أكثر لأن حياته ذهبت هدرا، ولكن حياته في الدفاع عن وطنه لم تذهب سـدى.. لقـد تحولت إلى شيء أسمى، إلى غضب يتأجج في صدر الأمة، ويدفعها للخلاص.

الأم: تتحدث عنه كأنه لن يعود.

المقدم راشد: لنتصور أقسى الاحتمالات خير من ركضنا وراء السراب..

الأم: (تنتحب)

المقدم راشد: إن نبيل بحاجة إلى عطفك وليلى ألا ترين كيف فارق عينيها المرح؟ إن عذاب الصغار أقسى من عذاب الكبار لأنهم أعجز منهم في مواجهة الصعاب. إن نبيل غدا يخشى الظلام ويخيل إليه أنه يرى أشباحا.. ألم يخطر لبالك أن حزنك

هو الذي يزرع الوحشة في قلبه؟ وليلى تبلل فراشها ولم تكن تفعل قبل، أليس هذا الشعور بفقدان الأمان؟ تحرمين الجميع عطفك وهم أكثر ما يكونون حاجة إليك.

الأم: ليس الأمر بيدي، ليس الأمر بيدي.. لقد أصبحت أخشى أن أطبع قبلة علـى وجه أحد منهما خوف أن يزداد تعلقي به فأفقده يوما.. لم أعد أستطيع أن أحتمـل العذاب.. يا ويلهم! إنهم قادرون على العدوان لأنهم جيل بغير أمهات.. (تـدخل غرفة النوم)

المقدم راشد: لست أشعر بالراحة في البيت ولست أشعر بالراحة خارجه، كرهـت مجالس الناس وكرهت العمل.. كرهت اليقظة وكرهت النوم، أفيق في منتـصف الليل على كآبة تمزق صدري وأبقى يقظا حتى الصباح لا يغمض لي جفن.. كيف يستطيع الناس أن يعيشوا ويعودوا إلى أعمالهم وتسلياتهم كأنما العدو لـيس علـى أبواب عاصمتهم؟.. حتى المقدم سميح لم يعد من هم له سوى الربح والشتم.. لـم يعد الحديث معه يُطاق. إنه يفكر في الأثاث الذي يشتريه، والستائر التي يزين بها منزله.. كلهم على هذا المنوال وليس الكفاح سوى كلمة على الأفـواه وصـفحات الجرائد وعلى أمواج الأثير.. والوطن تراب دنيء وحجـارة.. هـذا مرعـب ، مرعب.. إنه يفصم الإنسان هكذا عن واقعه.

العمة راضية: ليس الذنب ذنب الناس.. ليس في العالم شعب سيء إذا كانت قيادته حكيمة.. كل ما في الأمر أن الناس فقدوا إيمانهم القديم ولو عادوا إليه لانتـصروا كما كان ينتصر أجدادهم..

المقدم راشد: في الإيمان القديم يتساوى جميع الناس: المستغِل والمستَغل، الظـالم والمظلوم، الإقطاعي والفلاح، الرأسمالي والعامل.. يخرج صاحب عمارتنا مثلنـا بنصيب يساوي نصف مليون ليرة وهو ممتلئ رضى بأن هذا من حقه، هبـة الله إليه، ويخرج العامل بأقل من قوت يومه وليس له أن يشكو أو يتذمر.. من سخرية القدر أن الدين في فجره يكون درعا للمظلومين فلا يلبث عند مغيبه أن يصبح أداة بيد الظالمين لقهرالمسحوقين.. لقد حدث الوعي الطبقي في المجتمع وليس من قوة ترده إلى الوراء وعلى هذا الأساس يجب أن تُبنى نظرية الخلاص..

* * *

الفصل الثاني

المشهد الثاني

(محل لبيع الغاز.. براميل.. مكتب وتلفون.. عربة صغيرة للشحن أمام البـاب.. جو مكفهر يعلن عن وجود الغضب والتمرد العام.. كل شيء يوحي بأن الانفجـار يمكن أن يحدث من ثقب صغير في أحد البراميل ومن عود ثقاب.. المقدم راشـد والمقدم سميح يتحادثان.. عامل ينقل برميلا إلى العربة.

المقدم سميح: سيدي، لم يعد الجو يطاق.. نكاد نتمزق مـن الغـيظ.. اعتقـالات جديدة.. كل من تنفس بكلمة يُلقى في غياهب السجن. وتسمع كلاما يجعلك تُجـن، يقولون أننا أعطينا الشعب سلاحا ولكنه رفض أن يحارب، تصور!

المقدم راشد: دائما هكذا، لو انتصرنا لاحتكرت كل فئة أسباب النصر لنفسها، أما في الهزيمة فكل فئة تحمل جريرتها لغيرها.

المقدم سميح: لا يمكن لمثل هذه الحال أن تُحتمل.. لا يمكن أن تصلح الأمور دون انقلاب.

المقدم راشد: ألا نجد حلولا لأدوائنا بغير انقلاب؟ لقد أصبحنا كجيش رومـا قبـل انحلالها تغير كل شهرين قيصرا لتنال أعطيات جديدة، وكجيش الانكشاريين يغير سلطانه كما يغير حذاءه لنيل المكافآت، أما نحن فلقد استبدلنا القيـصر والـسلطان بطموح المنافع والترقيات.. ليس في الجيش فقط ولكن في كل دائرة، وفـي كـل

بيت، وفي كل مكان، طموح مثار وكفاءة متدنية.. هذه هي الظاهرة البارزة فـي مجتمعنا..

المقدم سميح: إن دم الإنسان لا يحتمل رؤية ما يجري حوله ويبقى هادئا.

المقدم راشد: المرض موجود ولو بقيت تغير الفئات أبد الدهر.. والظاهرة هـي.. الطموح المثار والكفاءة المتدنية..

المقدم سميح: وما هو الحل لديك؟

المقدم راشد: أن تستقر بنا أولا تلك الحركة الدائرة التي فقدت وعيها.. فلا يمكـن لتفكير متزن أن يسود في هذا الجو.. (يرن التلفون) نعم، نعم.. بعد ربع سـاعة يكون عندكم (يكتب العنوان)

المقدم سميح: لا يخسر الناس كثيرا في تغيير تلك الوجوه..

المقدم راشد: بل حصيلة هذا طموح مثار أكثر وكفاءة متدنية أكثر.. وتكرار هـذه الحال يجعلنا بناء رمليا وهشيما تذروه الرياح..

المقدم سميح: ولكن الإنسان لا يملك حرية العمل دون أن تكون بيده البادرة.

المقدم راشد: لم يعد الحكم وسام شرف للإنسان الاّ أن يقدر أن يملأه، فإن لم يفعل كان سبة له وعارا على أيامه التي اختلسها من عرق الشعب.. كل العيون مفتحة، وكل العيون نقّادة.. هذا عهد لم يعد للطواويس فيه مكان.. لو رآك النـاس تلـبس آنق مما ينبغي، وتفرش بيتك بأثاث أثمن مما ينبغي، وتركب سـيارة أفخـم ممـا

ينبغي لحاصرتك النظرات الحاقدة والهمسات المستريبة متسائلة أنّى لك هذا؟ وماذا قدمت لمجتمعك لتنال هذا!.. نحن على قدر يغلي وقد يطفو على القدر زبد.. ولكن الزبد يذهب جفاء ولا يبقى إلا ما ينفع الناس، ولهذا لا حاجة للتناحر بيننا لنطفـو على الوجه. (يدخل العامل) خذ برميلا لهذا العنوان!

العامل: حاضر سيدي (ينقل برميلا آخر)

المقدم سميح: الحق بيدك سيدي، لم يعد جيشنا يحن إلـى الهـزائم فـي الخـارج والانقلابات في الداخل.. حرام تلك الرواتب الضخمة التي يقتطعهـا مـن قـوت الشعب. ومع ذلك فإنني لا أفهم كيف تصلح الأمور بدون انقلاب (يهم بقول شيء ثم يتراجع)

المقدم راشد: أرجو أن لا تكون واقعا تحت تأثير إحدى الفئات الانقلابية لأن الكلمة أصبحت كثيرة التجوال على لسانك..

المقدم سميح: لا أبدا.. (يبدو عليه الاضطراب)

المقدم راشد: من الأفضل أن لا يستمع الإنسان كثيرا لهؤلاء ولا لغيـرهم.. إنهـم كما قال عبد الله بن عمر عن ابن الزبير لزوجته:" أما رأيت بغلات معاوية الشهب اللواتي كان يحج عليهم! فإن ابن الزبير ما يريد غيرهن."

المقدم سميح: (يتردد قليلا ثم يقول) معك حق.. إنهم يحومون حولي لضمي إليهم ولكنني لم أقطع بعد في أمر..

المقدم راشد: إياك ثم إياك. ليس في هذا إلا فتنة واتساع صدع. ليكن في هذا البلد التعس فئة ليس لشهرة الحكم في نفسها إغراء ولا في ضميرها فساد لعلها تستطيع أن تؤلف القلوب وتنزع غلّها.

المقدم سميح: ونصبح كرجال الدين عندنا؟

المقدم راشد: وما لهم رجال الدين عندنا؟ لقد كانوا طوال التـاريخ فـي صـفوف الشعب المحروم.

المقدم سميح: أنت تقول هذا!

المقدم راشد: لينصف الإنسان نفسه وسواه.. لقد كان رجال الدين عندنا يحملـون دائما أشواق الإنسان إلى المساواة، وكانوا فقراء ولم يصبحوا أبدا طبقة إقطاعيـة كما في أوروبا.. وكانوا متواضعين فلم يزعموا أنهم ظل الله على الأرض.

المقدم سميح: ولكنهم لم يقفوا في وجه الظلم.

المقدم راشد: قاوموا الظلم كل بما يطيق، وخففوا كثيـرا مـن مـساوئ النظـام الإقطاعي الذي ساد، وكان لا بد له أن يسود.. الرجل المتدين ليس عدو الرجـل التقدمي، واحد يحمل أشواق المساواة وواحد يضرب الأسباب التي أدت إلى عـدم المواساة.. ولكن إذا وجد رجل يدعي الدين ليبقي على الإقطاع وليجد للإقطاعيين الحق في الاستغلال، فهذا عدو لنا وحق لنا أن نكون حربا عليـه.. أسـقط مـن حسابك الرجال المتدينين، فأنت تسقط معظم الأمة. فمن تبقي لمواجهة المعركة؟

المقدم سميح: (متململا) ولكن.. أن تسود القوى الغيبية تعطل كل التقـدم وكـل التطور وتحبسنا في قوقعة لا منفذ لها.

المقدم رشاد: هذا إذا فهم الناس الدين جمودا ولم يفهموه حركة.. التعـصب هـو الذميم.. ونحن متعصبون أيضا إن أبينا للآخرين قناعاتهم الشخـصية.. يجـب أن يسود بين الناس حرية المعتقد.. أترى أعطت الحياة للإنسان الكثير حتى نحرمـه من العزاء؟ من يكون دينه نقيا ويرفض المساواة الاجتماعية؟ كفى نضع الحواجز بيننا ونعمقها.. أي رجل صادق الدين يرفض الدفاع عن بلده؟ أي رجـل مـؤمن يقصر في معركة التحرير؟ إن علينا أن نحارب الاستغلال ونحارب العـدو لا أن نحارب الرجل المتدين.. فالزمن قد أتى ليرى ابن الشعب المتدين حلمـه الطويـل يغدو حقيقة لا أماني باطلة.. فلماذا نخشى في يده السلاح؟.. إنه شـعبنا البـسيط، أتراه يحمل السلاح ليضربنا به ويعيد للإقطاعي نفوذه؟ إن أعظم هدف يطمع إليه الإنسان الشريف هو أن للإنسان العربي ثقته بنفسه وبغيره.. نحن نعيش أزمة ثقة خطيرة.. (يدخل عامر مضطرب الأنفاس)

المقدم سميح: (قلقا) خير إنشاء الله (يهمس عامر بأذنه شيئا) أين أختفي؟..

(للمقدم راشد) لن أخفي عنك شيئا، لقد تورطت..

المقدم راشد: لا حول ولا قوة إلا بالله..

المقدم سميح: إن قبضوا علي.

المقدم راشد: لست أفهم شيئا، إلى أي مدى تورطت؟ ومع من؟

المقدم سميح: مجرد كلام.. ولكن أنت أدرى بالتحقيق.. يجـب أن أجـد طريقـة للهرب.. لقد كشف الأمر.. والاعتقالات على قدم وساق..

المقدم راشد: إن في هربك دليل اتهام.. فإن لم يكن الأمر خطرا لن يمـسك أحـد بسوء..

المقدم سميح: لست أحتمل إجراءات التحقيق والسجن.. عامر! أوقف أيـة سـيارة أجرة عابرة (يخرج عامر مسرعا) هذا مفتاح الصندوق (يعطيه لأبي راشد)

المقدم راشد: هدئ روعك (يناوله سيجارة)

المقدم سميح: قبضوا على النقيب جبور غانم والنقيب فايز فوزي.

المقدم راشد: (يضرب كفا بكف) أمع هؤلاء تتعاون! إنني لا أكاد أصدق.

المقدم سميح: إن مثل هذا الحكم يدفع الإنسان للتعاون مع الشيطان.

المقدم راشد: لا حول ولا قوة إلا بالله!.. (تقف سيارة جيب أمام المحل، يخـرج رجال الشرطة)

رجل أمن: المقدم سميح داوود! تفضل معنا! (يتقدم المقـدم سـميح مضعـضع الحواس زائغ النظرات، يطرق المقدم راشد حزينا)

* * *

الفصل الثاني

المشهد الثالث

(منزل المقدم راشد فتحي.. أم عامر في زيارة لأم حازم)

أم عامر: كنت في زيارته في السجن.. لم يبق إلا نصفه.. لا تعرفينه، ناحل شعث الشعر طويل اللحية.. لم يُتح لي أن أكلمه عن قرب، ولكن منظره يدل على أنهـم يعذبونه.. (تبكي) أي بلاء هذا الذي أصابنا يا إلهي.

أم حازم: ماذا أقول أنا؟ آه!..

أم عامر: ليكن الله في عونك..

أم حازم: لو أنني كنت أعلم أني فقدته لساوته الآن.. شهر يتلو الشهر وخيبة تتلـو الخيبة.. البارحة استيقظت من غفوتي على حلم وخيل إلي أنني أسمعه يعزف على قيثارته.. هرولت كالمجنونة إلى البهو فرأيت نبيل يعبث بالكمنجة وبكيـت حتـى جفت مآقي.. في كل لحظة يُخيل لي أن الباب سيفتح وسأراه داخـلا.. (تمـسح دمعها)

أم عامر: لم أخبره أنهم قطعوا عني راتبه التقاعـدي.. وأن الـدائنين يلاحقوننـا بأقساط الأثاث الجديد الذي اشتريناه.. قلت يكفيه ما هو فيه.. ليتنـي أسـتطيع أن أعيده أو يشتريه مني شار دون خسارة كبيرة.. ويلي من الأقساط وويلـي مـن أجرة البيت وويلي من المصروف!..

أم حازم: كل خسارة تُعوض إلا الروح إن ذهبت لن تعود..

أم عامر: لست أدري بماذا يحكمون عليه..

أم حازم: ليس إلا كل خير..

أم عامر: قال لي فؤاد البارحة:" سأخرج من المدرسة يا ماما وسأعمل ريثما يعود بابا إلينا.." أما عامر فإنني لم أعد أستطيع السيطرة عليه بعد ذهاب والده.. يشرب الدخان، وفي كل ليلة يتأخر في السهر وقد أهمل دراسته تماما.. كان يهاب والـده أما اليوم فمن يهاب؟ (تسمع قلقلة مفتاح بالباب.. يدخل المقدم راشد ويسلم..

المقدم راشد: كيف حال أبي عامر؟

أم عامر: في أسوأ حال.. (تبكي) إلى متى يدوم هذا الحال؟

المقدم راشد: اصبري.. يفرجها الله! وكيف عامر؟

أم حازم: إنها تشكو منه.

المقدم راشد: خير إن شاء الله!

أم عامر: أنت تدري.. فتى مراهق.. ولا يحس بنا.. كأنما كان سجن أبيه مناسـبة سعيدة له ليركب رأسه ويفلت العنان لنزواته..

المقدم راشد: لا حول ولا قوة إلا بالله.. سأحاول نصحه بالحسنى، إنه غير عسير على الإصلاح.

أم عامر: إن حوله رفاق سوء.

المقدم راشد: سأحذره مغبة هذا السلوك، ولكنه لا يأتي إلى المحل.. كنـت أود أن أبعث إليكم بنصيبكم.. تفضلي، ها هو مهيأ في مظـروف (يخـرج مـن جيبـه مظروفا فيه أوراق نقدية ويناولها إياه)

أم عامر: كثر الله خيرك.. خير أن تسلمني إياه.. فعامر لا يفرق بين ما هو له وما هو مصروف العائلة..

المقدم راشد: ألهذا الحد؟

أم حازم: إنها طفرة عمره.. كلهم يتزنون بعد ذلك.. آه، ليت حازم يعود ويفـري لحمي.. (تبكي.. تكفكف دمعها وهي تحضر علبة سكاكر) تفضلي، تفضل..

أم عامر: ليطمئنك الله عنه بخبر يفرحك.. أستودعكم الله، سأذهب قبـل أن يعـود الأولاد من المدرسة..

المقدم راشد وأم حازم: مع السلامة، شرفينا دائما بزيارتك!.

المقدم راشد: إن كنت بحاجة إلى شيء.. أنا دائما في خدمتك.

أم عامر: كثر الله خيرك.. ليسعدك بما تستحقه إنسانيتك.. إن كان بوسعك أن تكلم أحدا في أمر أبي عامر.. إنه بريء والله.. إنني أعلم أنه يؤخـذ بـذنب سـواه.. صحيح أنه يتذمر ويشتم ولكنه لا يقدم على أكثر من هذا.. وأي شيء بيده ليقـدم؟ الطائرات أم المدرعات أم الجنود أم السلاح أم المال؟

المقدم راشد: لست على علاقة وثيقة بأحد.. ومع ذلك أفعل جهدي..

أم عامر: يعلم الله أننا نعيش في جو الخوف والقلق والحرمان والذل.. إنني أنـوء بالمطالب اليومية للحياة.. (تبكي) وبتربية الأولاد..

المقدم راشد: اصبري يا أم عامر.. ليس إلا الصبر نقاوم به ما يصيبنا من بلاء.. (تخرج)

المقدم راشد: أستغرب أن يفقد ولد شهامته وهو يرى ما فيه أمه من ضيق.. أفضل أن يموت ابني ألف ميتة على أن يكون لي ولد تافه أناني كعامر.. ومع ذلك فليس صدفة أن ينمو ولد مثل هذا النمو.. إنها اللامبالاة التي تعقب خيبة الأمل..

أم حازم: كان ابننا حازم أفضل منه في كل شيء.. (تبكي)

المقدم راشد: سأتلفن للمقدم جميل قاسم.. (يتلفن) أنا المقدم راشـد.. مرحبـا.. رجاء أين أستطيع أن أراك؟.. أأزورك في الوزارة أم في منزلك؟ أنت تزورني؟.. أهلا وسهلا.. ممنون لك.. كلا.. إنني في البيت.. إنني أنتظرك.. يا مرحبا بك.. (يضع السماعة) لست أدري ما هناك.. كان يود زيارتي لأمر ما.

أم حازم: (يشرق وجهها) لعله تلقى خبرا بشأن حازم!..

المقدم راشد: إنه لا يعلم بالأمر (أم حازم تأخذ نسيجها من على الطاولـة وتبـدأ بالنسيج بعصبية وتوتر.. المقدم راشد يشعل لفافة)

المقدم راشد: أين راضية؟

أم حازم: لم تعد بعد من السوق.

المقدم راشد: وليلى؟

أم حازم: معها.

المقدم راشد: ونبيل؟

أم حازم: يلعب الكرة في الملعب المجاور مع صديقه.. (رنين جرس الباب.. يفتح المقدم راشد)

المقدم راشد: أهلا وسهلا، أهلا وسهلا.. المقدم جميل قاسم، زوجتـي أم حـازم، مرحبا.. أرجو أن لا تكون قد وجدت صعوبة في الاهتداء إلى المنزل..

المقدم جميل: إنني أعرفه.. إنني أسكن في هذه المنطقة.. بل في نفس الشارع..

المقدم راشد: جارنا ولا ندري!..

المقدم جميل: لقد انتقلت إلى هنا قبل الحوادث بقليل..

المقدم راشد: أجرة أم شراء؟

المقدم جميل: شراء.. (يتنهد)

المقدم راشد: نادم!

المقدم جميل: طبعا، عندما تسوء الأحوال إلى هذه الدرجة ويصبح العـدو علـى مشارفنا..

المقدم راشد: خطأ من هذا؟ لقد كانت لدينا آمن الحصون...

المقدم جميل: لا فائدة من اللوم.. جرى ما جرى وعلينا أن نجد طريق الخلاص.

المقدم راشد: (بفتور) هل وجدتموه؟..

المقدم جميل: لقد كنت دائما أفكر بحديثك معي وأدافع عن وجهـة نظـرك بـين رفاقي.

المقدم راشد: ويبدو لي أنك لاقيت فشلا ذريعا.

المقدم جميل: كيف! لقد أصبحوا يميلون إلى التعاون..

المقدم راشد: أي تعاون والسجون تفتح أبوابها لمن يرون الرأي الواحد ويرفعون الشعار الواحد؟

المقدم جميل: إن ما يحدث يجثم كالصخرة على ضميري، ولكن البادئ أظلم.

المقدم راشد: ما أدق الفارق أن يكون الرجل متآمرا أو متعاونا.. أنـتم تخلقـون الظروف لهذا الرجل أو ذاك..

المقدم جميل: هناك من طبعه التخريب.

المقدم راشد: إنهم ليسوا أعداء، إنهم رفاق مبدأ فلمـاذا يـسهل علـيكم قطعهـم ووصمهم وإدانتهم وتعذيبهم؟

المقدم جميل: ما كانوا ليوفرونا لو نجحوا.. يجب أن يلقى المتآمر عقابه، أو تفرقنا الفوضى والتخريب.

المقدم راشد: أجدر بكم أن تؤلفوا القلوب النفورة.. لقد فقد كل منا الثقة بأخيه وأخذ يلمحه بريبة واتهام.. والنتيجة ما ترى، تطغى الخلافات الصغيرة علـى الخطـر

المحدق بنا جميعا، فنغفله ونذكرها بضغينة تملأ قلوبنا بالقروح.. (تخرج أم حازم لتعد القهوة)

المقدم جميل: نتعاون مع من نلمس عنده الإخلاص.. إننا بحاجة فقـط إلـى مـن يخدمون البلد دون مطامع خاصة.. لقد أعدنا إلى الخدمة مسرحين، ونعرض الأمر على آخرين ولقد جئت إليك لهذا السبب.. لتعود وتخدم جيشك. لقد كلفت أن أبلغك هذا بنفسي..

المقدم راشد: كيف لي أن أتعاون معكم ورفاقي في السجون؟ افتحوا السجون، إنها للخونة لا للرفاق.. لا لمثل المقدم سميح..

المقدم جميل: أنا لست وحدي في هذا، ولو أوكل لي الأمر لعفوت عن الجميع.

المقدم راشد: ليرتفع صوت مخلص شجاع يبدد وحشة الصمت المجـرم فترتفـع أصوات أخرى.. كثيرون يتصرفون كمن رأى الملك عاريا فخشي المجاهرة خوف أن يتهم بقلة الإخلاص.. إن المصيبة في الإساءة العامة أن أحدا لا يتحمل وزرها بشكل مباشر.

المقدم جميل: عقدنا جلسة في هذا الخصوص.. تيار يخشى العنف وتيـار يـأبى الغدر.

المقدم راشد: ورجال في قسوة السجن، وعيال تقطع عنها الرواتب.. لو أن الـذين يتناقشون، يفكرون بالأطفال الذين يتضورون من الجوع.. لماذا يحتمـل الأطفـال

العذاب؟ لماذا يعيشون في جو الخوف والقلق والحرمان وهم ليسوا أبناء خونـة أو مجرمين؟

المقدم جميل: أنا معك أتألم لما يجري..

المقدم راشد: إنها ظاهرة خطيرة أن يحارب إنسان في لقمة عياله بـسبب رأيـه السياسي.. ماذا يكون شعور أي فرد يستلم وظيفة في هذا البلد حتى أنـتم الـذين بيدكم الحكم اليوم، أمام القلق المدمر وأنتم تفكرون في مستقبلكم ومستقبل عيـالكم، لو جاء عهد تلاحقون فيه ويزج بكم في السجون. أو تـضطرون للتـواري عـن الأنظار أمام تهم قد تكون باطلة جائرة، وترك عيالكم بلا معيل؟

المقدم جميل: لماذا لا يفكرون هم بمثل هذا قبل أن يمدوا أيديهم إلى لعبة قذرة؟

المقدم راشد: صعب على من ينام عل فراش وثير أن يفكـر فـيمن ينـام علـى الشوك.. لا تسأل لم! يبدو لي أن الأمر تحول من ثورة إلى لعبة كرة القدم..

المقدم جميل: من الصعب أن يبتّ إنسان في مثل هذه الأمور.. صـدقني أن كـل سجين من رفاقنا يعذبني أمره كمن يلذع بالنار، حتى بتّ لا أدري أهو السجين أم أنا.. وكثيرا ما أفقت على حلم أنني كنت فيه أنا المطارد أو المعتقل.. (تـدخل أم حازم مقدمة القهوة) لم تخبرني بعد عن قرارك.

المقدم راشد: لست أتراجع عن كلمة قلتها بالرغم من تطورات الموقـف.. كنـت جنديا كل حياتي، ولا أزال هذا الجندي الذي لا يضن على بلده بشيء حين يحتاج

إليه..(أم حازم تشهق بدهشة وغيظ، ثم تجلس بعصبية والفنجان يرتجف بيديها.. تضعه على المائدة وتتناول صوفها، تنسج بسرعة ينم عن غضبها) ولكن يجب أن تعلم كم يكلفني هذا الأمر بعد أن ذهب ابني..

المقدم راشد: (يشير إلى الصورة) إلى غير رجعة.. كل ما أطلبـه أن يكـون الأمر جدا لا هزلا.(تترك أم حازم الغرفة وتتوارى)

المقدم جميل: يبدو لي أن السيدة غاضبة!..

المقدم راشد: نعم، وسيغضب مني كل أصدقائي.. هذه هي العزلة التي تعيشونها، وهذه هي العزلة التي تفرضونها علي.. افتحوا السجون.. لن ينقذ الأمـر حلـول فردية.

المقدم جميل: سأناضل من أجل هذا بكل قوتي.. أستودعك الله (يسلم ويخـرج.. تدخل ام حازم)

أم حازم: يريدون قناعا يتسترون به هؤلاء الأشقياء، يريدونك قفازا لا يترك آثار بصماتهم المجرمة.. وأنت تسير معهم مغمض العينين!.. اتركهم لخزيهم وعارهم، أتركهم يدفعون الثمن وحدهم، لماذا تمد إليهم يدك وتسندهم؟ لماذا تعطّر بـسمعتك الطيبة وجودهم العفن؟ ماذا تقول لأصدقائك؟ ماذا تقول لعائلات رفاقك الذين فـي السجون؟ ماذا تقول لكل من يثق بك ويحبك؟ كيف تخدع دائما بأشـرف عاطفـة فيك؟ كيف تعامل بالمبدأ من لا مبدأ له، وبالشرف من لا شرف له، وبـالإخلاص

من لا إخلاص له؟ لا غاية لهم إلا أن يمرغّوك معهم بأوحالهم، أصدقتهم؟ أصدقت رغبتهم في التعاون؟ أي خير يرجى منهم وقد جعلونا تحت رحمـة الأعـداء؟ أي خير يرجى منهم وقد فجعونا بالولد؟.. ستدافع عنهم بعد اليوم، لن تسمح لأحـد أن يتناولهم بالسوء، لن تسمح حتى لي أن أبكي حرماني ولدي بسببهم (تبكي) إنه لا يكلف نفسه حتى بالسؤال عن مصيبتك!..

المقدم راشد: لا حاجة بي لمن يخبرني أين طريق الشرف.

أم حازم: أليس لي الحق في إبداء الرأي؟ ما أنا هنا؟ مجرد خادمة لتنظيف المنزل، مجرد طباخة لطهي الطعام، مجرد أنثى للمتعة؟

المقدم راشد: إياك أن ترفعي صوتك.. لقد احتملتك كثيرا..

أم حازم: أأنا المذنبة في حقك كي تحتملني؟

المقدم راشد: أنا المذنب إذن؟ هذا ما يعتمل في صـدرك.. إنـك تتهمينـي فـي نظراتك.. لست غبيا كي لا أفهم.. إنك تحمليننني جريرة ما حدث.. اكشفي الستار عن قلبك وكفاك تجترين حقدك علي في الظلام.. يجب أن تفهمي أن كل شيء قد انتهى بيننا.. نضبت العلاقات بيننا وفقدتني بحماقتك..

أم حازم: ظالم، ظالم، ظالم!.. ماذا تريدني أن افعل؟ أرقص فرحا لأنـي فقـدت ابني!!..

المقدم راشد: لا ترفعي صوتك.. اذهبي إلى بيت أهلك.

أم حازم: أنت تقول لي هذا القول بعد تسعة عشر عاما!..

المقدم راشد: نعم، عندما تصبح زوجتي عدوة علي في بيتي.

أم حازم: أنا عدوة!

المقدم راشد: نعم، عندما تهدمين ثقة أبنائي بي.

أم حازم: ظالم، متحجر القلب، لا تعرف عدوك من صديقك..

المقدم راشد: أتعودين إلى الجرأة وسلاطة اللسان؟ امـرأة شـريرة اذهبـي إلـى أهلك!..

أم حازم: لست أنت الذي تأمرني بذلك.. أذهب أنا حين أختار..

المقدم راشد: تذهبين رغما عنك..

أم حازم: لا أحد في الدنيا يرغمني على شيء.

المقدم راشد: تأخذين حقوقك كاملة التي يخولها لها القانون.

أم حازم: عندما أفقدك لن أبالي بالحقوق.. أبرئك من كل حقوقي..

المقدم راشد: بل تأخذين كل شيء إلى آخر قرش.

أم حازم: إخجل من نفسك، أنا أعطيتك قلبا ولم أبعك جثة حتى آخذ ثمنها.

المقدم راشد: يجب أن تعيشي مكرمة في بيت أهلك، لا حاجة بك إلى أحد.

أم حازم: لن يضن علي أهلي باللقمة أسد بها جوعي.. أما أفراحي وأتراحي معك فلا أقبض عليها ثمنا..

المقدم راشد: لو كانت الأفراح والأتراح عزيزة عليك لما وقفت مني هذا الموقف.

أم حازم: إنك تأبى أن تفهم إنني امرأة جريحة فتمعن في جرحي.. أنـت تـدفعني لليأس، تدفعني للموت وأنا التي أسلمت نفسي إلى ضميرك.. حرام أن تعيش امرأة تحت رحمة رجل ولو كان نبيا.. (تنفجر بالبكاء)

المقدم راشد: أنت تأبين أن تفهمي أن جراحي تفوق جراحك، وإنني لم أفعـل إلا يمليه علي الشرف.. الحياة نفسها لا قيمة لها دون شرف.. وإنني أزن الأمور ألف مرة قبل أن أقدم عليها..

أم حازم: ليس من إنسان آله حتى يعصم عن الخطأ.. إنني أشعر بالإهانة، أشعر أنك في تعاونك معهم بعد الذي حدث تهين آلام الحمل وأوجاعه في جسدي تـسعة أشهر، تهين عذاب الولادة وأنا أعض على ذراعك حتى أدميها وقد أفقدني الألـم رشدي، تهين قلقي وآمالي وأنا أرقب نمو إبني يوما بعد يوم وعاما بعد عام..

لم أسقه دماء قلبي كي يهدر في صباه.. كيف تتعاون مع هـؤلاء الـذين قـادوا الأطفال إلى المعركة وهم يرتشون ويبنون البيوت ويكسون دورهم أفخر الأثـاث ونساءهم آنق الثياب باسم الاشتراكية، وباسم المساواة والعدالة الاجتماعية؟

المقدم راشد: لست أتعاون من أجل أحد.. بل لينام الأطفـال فـي فراشـهم دون خوف..

* * *

الفصل الثاني

المشهد الرابع

(أم حازم تنقل ثيابها وتضعها في حقيبة.. تدخل العمة راضية وليلى)

العمة راضية: ماذا دهاك؟ ما بك؟ ماذا جرى؟

أم حازم: اسأليه!.

صوت المقدم راشد من الخارج:عندما تذهبين لا عودة لك إلى هذا البيت.

العمة راضية: ماذا جرى؟ إن الناس يحسدونكما على وفاقكما..

أم حازم: لكل شيء نهاية.. لم أعد أحتمل، لم أعد أحتمل..(تغلق الحقيبة)

العمة راضية: كوني عاقلة يا أم حازم.. لا تتصرفي تصرفا أحمق.. إنك تعلمين أنه يحبك..

أم حازم: طاغية! لا أحتمل أنا الطغاة.

العمة راضية: كلنا متوترو الأعصاب.. إن الجو العام القلق يفرض علينا هذه النفسية الرهيبة.

أم حازم: دائما كان هكذا.. إنه يحمل رواسب أربعة آلاف عام طغى فيها الرجل وتجبر.. حرية الفكر لم تغير من طينته شيئا.

العمة راضية: اهدئي يا أم حازم.. إن زوجك خير الأزواج.. أخرجي إلى المجتمع واستمعي إلى قصص الناس..

أم حازم: لن أغفر له أبدا أنه كان بوسعه أن ينقذ ابني ولم يفعل.. لماذا يعود عامر إلى أمه ولا يعود حازم إلي؟ ويريدني أن لا أشـكو ولا أدمـع.. حتـى العـذاب الصامت يأباه علي..

العمة راضية: لا حول ولا قوة الاّ بالله.. أتحلين مشاكلك بهذه الطريقة، تتخلين عن بيتك وسمعتك الطيبة بين الناس؟ ماذا يقولون عنك؟

أم حازم: ما عدت أهتم بالناس ولا بما يقولونه.. إنني لا أشعر بالانتماء لأحـد.. لست أشعر أن تحت قدمي أرضا ثابتة..

العمة راضية: وهل ستثبت الأرض تحت قدميك في منزل أهلك؟

أم حازم: سأنام حينها وأرتاح.. سأغلق الباب علي وأبقى دون طعام وشراب حتى أموت.. وليحتمل أيضا جريرة موتي.. لست أطلب منه شيئا إلا أن لا يخرج فـي جنازتي.. هذا مطلبي الوحيد.

العمة راضية: هل فقدت عقلك؟

أم حازم: لن أفقد إلا عذابي وقيودي (تحمل الحقيبة إلى الباب، تركض ليلى إليها)

ليلى: ماما، أتتركيننا وتذهبين؟

أم حازم: كل ما أنت بحاجة إليه توفره لك عمتك.. إنها ترعاك وتحبك..

ليلى: ولكن عندما تنزل القنابل أخاف إن لم تضميني إليك.

أم حازم: (تجلس على المقعد) آه كم أنا ضعيفة! إن عيبي أن لي قلبـا يحـب.

(يرن الجرس ثم يدخل نبيل مولولا والدم يسيل من جبهته) ماذا جرى لك؟

نبيل: ضربني أحد الصبية بحجر.. (يدخل المقدم راشد وأدوات الإسعاف في يده)

المقدم راشد: هؤلاء ليس لهم حساب عندك! (يضمد جرح ابنه) من هـذا الـذي ضربك؟

نبيل: لم أره.. ضربني وهرب ولكن رفاقي شاهدوه.. إنه ابن العقيد سمعان..

المقدم راشد: العقيد سمعان! الرقيب الذي كان عندي ويكتب عني التقارير؟.. نذل ابن نذل.. ويسكن جواري وأنا لا أعلم، وابنه يضرب ابني.. الشريف يعتدي عليه الوغد وذو الضمير يحاكمه من لا ضمير له!.. وجودنا يتصرف فيه المباحـث.. هُدر قانون الأخلاق وساد الأوباش، يسرحون ويمرحون ويعيثون فسادا، العقـرب تلد العقرب والأفعى مثيلتها.. لماذا تخرج إلى الشارع وتعاشر الأشرار؟

نبيل: (باكيا) كنت ألعب مع رفاقي ولم أعاشر الأشرار..

المقدم راشد: لو كان قد أصاب عينك! ألم أحذرك أن لا تلعب في الشارع؟.. (إلى زوجته) أنظريه! فكري به! العالم خراب حولنا فدمري أنت في الداخل.. ليعطيك الله العافية على ما تخربين وتدمرين..

* * *

الفصل الثاني

المشهد الخامس

(يدخل حازم تتبعه دفقة نور يخترق المسرح ببطء وبخفة، ينظر فيما حوله، يرى والده مطرقا ورأسه بين يديه، يقف خلفه كأنما يستأذنه الظهور)

المقدم راشد: حازم! آه، حازم!..

حازم: نعم يا والدي إنني موجود..

المقدم راشد: أعلم أنك موجود، في كل مكان أنت، لقد أصبحت ضميري.. إننـي أحتكم إليك.

حازم: ألهذا ناديتني؟

المقدم راشد: نعم يا بني.

حازم: أيمكنني أن أقف بين يديك؟

المقدم راشد: فقط لا تبدو لي بشكل يمزق قلبي.. لا أريـد أن أرى جروحـك، لا أريد أن أعرف كيف نالتك يد الفناء، أبرصاصة غدرت بك أم بـشظية قنبلـة أم داستك عجلات دبابة أم أحرقتك قنبلة نابالم وعفت آثارك.. لا أريد أن أعرف كيف متّ.. تعددت الأسباب والموت واحد.. تعال إلي بابتسامتك المـشرقة وبحماسـك البريء.. إنني أعطيك اليوم مكانة من نفسي لم تنلها وأنت حي.. أنت قاضي يـا

حازم! عندما تسود الدنيا في عيني لا أفكر إلا بك (تتقاطر دمعتان على وجنتيـه فيتقدم حازم ويمسحهما له.. يقبل يديه وجبينه)

حازم: أبي لم أرك في حياتي باكيا!

المقدم راشد: كنت أبدو لك فظا جافي الطباع.

حازم: أبدا يا أبي كان قلبي دائما يشعر بحنانك.

المقدم راشد: وحتى حين كنت أضربك ضربا مبرحا لشقاوتك؟

حازم: متى؟.. (يضحك) إنني لا أذكر هذه الأمور.. مرة واحدة فقط عندما كدت أشعل النار في المنزل بحماقتي.. كم كان لي ولع بتجربة الأشياء الخطرة! تمنيت لو لم يكن لي أب، وكم عذّبني هذا الخاطر المجرم! وكرهتكم جميعا لأن أحدا لـم يشفع لي ويحميني، ورغبت أن أهجر البيت لأنكم تسيئون فهمي.. لقد كنت ألعب.. وعاقبتموني بشكل جائر.. ولكنني لم أجرؤ على ترك البيت.. خيل إلي أنـي أرى نفسي ولا مأوى لي في البرد، أتسول في الطرقات.. ثم لم تلبث أن امحت الذكرى والخواطر من نفسي ولكنني كنت أفاجأ أحيانا في لحظات غضبي من أخي نبيـل برغبة شريرة، فأود لو أتقمص شخصيتك وأنزل ضربا مبرحا على جسده لعلـي أخفف بعض المهانة التي أصابتني والتي تحيا ذكراها حين غضبي..

المقدم راشد: ليت الإنسان يقوى أن يمتلك أعصابه في مثل تلك المواقف.. تنـدلع منه نار مؤذية مجنونة.. أول ما تصيبه هو بالحروق، ويبقى الليالي مسهدا يلذّعـه

الندم.. هذا شأني دائما.. ولكنني أغضب في حق.. أسكت طويلا عن الذنوب ثـم أنفجر.. انظر على أمك!

حازم: لا تستحق أمي أن تنفجر هكذا في وجهها..

المقدم راشد: أنت دائما في صف أمك.. هكذا الأبناء دائما.. وهذا ما يجعلني أغلي بالغيظ.. إنها تقسم البيت إلى معسكرين..

حازم: يجب أن تفهمها يا أبي.. إنها تتعذب.. ليس فقد الابن بأمر سهل يا أبـي.. أتمنى لو أعود للحياة من أجل هذا فقط، من أجل هذا فقط، كي لا أراهـا دامعـة العينين.

المقدم راشد: أسهل علي أنا فقد ابن؟ لا يمكن لأحد أن يدرك أغوار عذابي.. لـن تستطيع حتى أنت الذي تحررت من الجسد أن تنصفني.. إننـي وحيـد، وحيـد.. ولكنني عرفت كيف أرفع عذابي إلى قوة هائلة متفجرة.. إنني رقم مفـرد ولكنـه يضرب في أسات عديدة، أس واحد، أس اثنين، أس خمسة، أس عشرة، أس مائة، أس ألف.. كلما زاد عذابي، زادت الأسات فوق رقمي.. هكذا أشعر، هكذا أريد أن أتفجر، هكذا أريد أن أعوضك يا حازم.. كيف أحتمل هذه القوى التي ينـوء بهـا كاهلي دون أن أجد لها عملا، دون أن أراها تعمل وتتفاعل؟ أأعيش أحلام اليقظـة في عزلة كئيبة، أأجترها حتى تقضي علي؟ علي أن أجد لها ميدانا للعمل فكيـف أرفض فرصة العمل؟ خطرة هذه القوى الحبيسة في إن لم تحقـق ذاتهـا، إنهـا

تحطمني أو تحطم بيتي.. أنا لا أستطيع أن أكون إنسانا سلبيا، لا أستطيع أن أحمل قلبي وأخفيه في قوقعة وأنام آمنا مطمئنا.. أنا لا أرضخ أذني للأراجيف، ولكن لي واجبي أؤديه.. لن أسمح يوما أن يقال عني أنّي تخليت عن واجبـي، فهـل أنـا مخطئ في هذا يا حازم؟

حازم: كم أحبك يا أبي وأنت في تجليك.. لك قلب صوفي يا أبي بلغ اتحـاده مـع الله!..

المقدم راشد: أتراني أسيء إلى أمك بتصرفي؟ أتراني أخيب رجاء أصدقائي بي؟ أتراني أستحق لوم الجميع؟

حازم: لا لوم عليك يا أبي.

المقدم راشد: ولكنهم يلومونني.. أرى ذلك في عيونهم، أرى ذلك في تلميحاتهم في إشاراتهم، فكيف لا أغضب؟

حازم: إفعل ما تراه حقا وسيرى الآخرون أنك على حق..

المقدم راشد: لا يقوم الإنسان بعمله متقنا دون إيمان الآخرين به.

حازم: إنني أومن بك..

المقدم راشد: ولكن لم هي، هي بالذات تراني على غير حقيقتي؟ إنها لا تفهمنـي، إنها لا تستحقني، إنها لا تريد أن ترتفع إلى أشواقي وتطلعاتي.. أيجب أن أحتملها وفي عينيها الاتهام لي؟ أنا لم أخطئ، أنا لا أخطئ، إنني أحاسب نفـسي حـسابا

عسيرا حتى لا أخطئ.. لو كنت لا أحبها، لو كنت لا أشـفق علـى مـصيرها، لهجرتها إلى الأبد.. ما حاجة الإنسان لمن لا يفهمه؟ ما حاجة الإنسان لمن لا يثق به؟ ما حاجته لمن يزعزع له إيمانه في نفسه؟ أنا لا أريـد أن أرى إلا مـا أراه حقا.. لا أريد قربي إلا من يرى ما أراه حقا.. يجب أن تؤمن بي إيماني بنفسي.. هكذا أفهمها لي زوجة، ودون ذلك لا.. لا.. لا.. حماقة وجنون وقبض سراب..

حازم: لا تعد إلى الغضب يا أبي.. عاملها كما هي.. إنسانة مفجوعة!..

المقدم راشد: وأنا الذي فجعتها! هي وغيرهـا سـواء.. إن هـذا البلـد لا يريـد التضحية.. يكره التضحية.. ويفعل ما بوسعه ليبعـد شـبح التـضحية.. ولكـن المصائب ستنزل به شاء أو أبى لأنه يكره التضحية.. لأنه أعمى لا يريد أن ينظر واقعه كما هو، ولا أن يواجهه كما يجب أن يواجهه..

حازم: أبي اهدأ يا أبي، إنك منفعل.. ولكنني لو كنت أعلم أنني ذاهب لأشاهد تلك المهزلة لما خرجت من داري.. كنت أمنّي النفس بأشياء حقيقية..

المقدم راشد: ليس هناك من حقيقة سوى استعداد حقيقي، وغير هذا لـن تجـد إلا مهازل.. لن يذهب أمثالك هدرا بعد اليوم يا حازم.. هذا وعدي لك.. وعدي لـك والدمع يتلألأ في عيني.. لن يغدر بشباب أمثالك جبن دعاة السلام، ولا الإهمـال المتعمد للانتهازيين ولا الحقد الأعمى للمنحرفين.

حازم: كم أكون راضيا حينذاك! الحياة جميلة يا أبي، من الظلم أن تهدر.. ما أشد شوقي لألمس كمنجتي وأعزف عليها ولكن كيف أفعل ذلك دون أنامل حقيقية؟

المقدم راشد: (يمسك بالكمنجة وينفض عنها الغبار، يعريها مـن بيتهـا ويأخـذ بالضرب على الأوتار نغمة كان يعزفها حازم) ألا ترى يـا حـازم أن أنـاملي تطاوعني؟ ألا ترى أنك تعيش في؟

(يختفي حازم) أين ذهبت دون أن أودعك وأقبلك؟ (تدخل أم حازم مندفعة مـن باب غرفة النوم بمنامتها وعيناها ذاهلتان، حركاتها تنبض بالتعاسة وخيبة الأمل)

أم حازم: أهذا أنت؟ ولقد ظننت.. يا إلهي هل كنت أحلم؟ (تنفجر بالبكاء.. يضع المقدم راشد الكمنجة على الأريكة ويضمها إليه) إنني أتعذب، أخشى أن أجن، لا تتركني وحدي! دعني أشعر بوجودك قربي، إنني بحاجـة إليـك، بحاجـة إليـك لأطمئن وأشعر بالأمان. (يتعانقان بقوة)..

* * *

الفصل الثالث

المشهد الأول

(المقدم راشد في ملابس ضابط طيران.. تشاهد طائرات في الخلـف.. بـضعة طيارين شباب تحت التمرين ملتفين حوله.. انتهوا لتوهم من التدريبات العملية)

الطيار(1): إنني منذ بضعة شهور لم أر أهلي.. هل تسمح لي بإجازة؟

المقدم راشد: لن أعطي أحدا إجازات حتى العيد..

الطيار(2): إن رفاقنا يسمح لهم.. ولكننا نتدرب تدريبا متواصلا لا راحة فيه.

المقدم راشد: يا بني إنني أعتمد عليكم، إنني أثق بكم، أعلم أن التـدريب يـرهقكم ولكن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي نعوض فيها خساراتنا ونجنب البلـد ضـحايا جديدة. أنتم الذين تعيدون إلى الأمة ثقتها في نفسها فلا يؤثر فيها ذلك الانقـضاض على إرادتها.

الطيار(3): ماذا تعني بالانقضاض على إرادتها؟

المقدم راشد: زرع الخوف والرعب في قلوب الناس حتى يُجبروا حكوماتهم على الاستسلام وعقد الصلح.. هذا هو الخطر الأكبر.. ولكن هذا الهدم للروح المعنوية إن لم يبلغ هدفه أول الأمر بطل مفعوله وتعود الناس عليه فلا يرهبهم.. هذا هـو واجبكم يا أبنائي.. أن تكسروا هذا الوهم.. كان للهزيمة أسباب يجـب أن نفهمهـا جيدا ولا نؤخذ بالتهاويل فنفقد إرادتنا.. المستقبل لنا.. لأننا نملك قـوى مـستمرة

دائمة متطورة تنمو وتتفتح يوما بعد يوم.. لا يجب أن يخيفنا ذلك الخطف لنـصر موقّت.. النصر لمن يصبر حتى النهاية..

الطيار(1): لن أعود إلى طلب إجازة.. في الواقع أنه لا يحق لنا أن نرتاح أبـدا.. إنني كلما أفكر في الخامس من حزيران يعتريني شعور قاس لا يـرحم.. لمـاذا، لماذا حدث ما حدث؟. وأود لو أنني في طرفة عين أقلـب كـل شـيء وأثبـت جدارتنا..

المقدم راشد: يا بني لسنا بحاجة إلى نصر يؤخذ في طرفة عـين.. إنـه نـصر ضعيف خائف يليق بأعدائنا، ولن يثبت أمام إصرار طويل الأمد.

الطيار(2): لقد جاؤوا كاللصوص تحت جنح الظلام وانقضوا على أهدافنا ودمروا منشآتنا وقصفوا الأماكن المأهولة بالسكان المدنيين.

المقدم راشد: إن طاقات الطيران الهجومية قادرة علـى إلحـاق أبلـغ الخـسائر والأضرار.. لقد كان سبب خسارتنا لمعركة 5 حزيران أن طائراتنا دمرت قبل أن نبدأ معركة حقيقية..

الطيار(3): شيء مؤلم، ومخجل معا..

المقدم راشد: يحدث ذلك في المعارك.. ولكن معركتنا لم تنته.. كل شيء يعوض، إلا الإرادة إن تخاذلت فلا شيء يعوضها..

الطيار(1): لماذا لم تستطع الدبابات أن تحقق نصرا؟

المقدم راشد: كانت بين ناري طائرات العدو من الجو ودباباته من البـر.. كـان النصر للعدو سهلا بعد تدمير الطيران..

الطيار(2): إن قصف القرى العزلاء جعل سكانها يهربون ويخلونها للعدو..

المقدم راشد: هذا لا غرابة فيه حين لا يدرب الناس البسطاء لمواجهة الخطر.

الطيار(1): كم نحتاج من الوقت ليتدرب الناس!.. في إجازتي الأولى ذهبت لرؤية قريب لي بين اللاجئين.. كانوا يحتشدون في مدرسة بنات في دمـشق، وعنـدما دخلت زكم أنفي روائح كريهة وعلمت أن دورات المياه مـسدودة لأن الفلاحـين كانوا يستعملون الحجارة في تنظيف أنفسهم ويلقونها في دورات المياه.. (يضحك الطيارون المتمرنون)

المقدم راشد: ليس هذا ذنبهم.. إن شعبنا بسيط ولكنه شجاع.. هؤلاء هم القادرون على التضحية أكثر من الجميع.. إن أبناءهم هم الذين ينخرطـون فـي صـفوف الفدائيين ويدفعون ضريبة الدم.. والأهل يحتملون التضحيات بقلوب كبيرة مذهلـة في جلدها واحتمالها..(طيار رابع يركض.. يقف لاهثا أمام المقدم راشد ويحييه)

الطيار(4): سيدي! تلقون من ضباط الرادار.. إن سربا من الطائرات العدوة فـي سمائنا!..

المقدم راشد: هيا يا أبنائي! هيا إلى طائراتكم.. كرامة الأرض منوطة بكم.. عيون الأمهات ترنو إليكم لتحموا أطفالها..

الطيار(1): وكنت أطلب إجازة!.. حانت ساعة العمل!(يخرجون)

(يدخل عاملا تنظيف، يسمع هدير الطائرات)

العامل(1): ماذا هناك؟

العامل(2): غارة (صوت انفجار)

العامل(1): لينصر الله طيارينا.!

العامل(2): طائرة قد احترقت.. انظر هناك! إنها تجر ذيل دخان وتسقط..

العامل(1): لا أرى جيدا.. هل هي طائرة عدوة؟

العامل(2): نعم، عليها نجمة..

(يخرج الطباخ وجنود المناوبة في المطبخ)

الطباخ: ماذا رأيت؟

العامل(2): سقطت طائرة للأعداء.

الجندي(1): أين؟

العامل(2): هناك.. في منطقة الهامة..

الجندي(2): انظروا.. طائرة إسرائيلية تلاحق طائرة من طائراتنا.

العامل(2): يا إلهي.. منظر مروع.

العامل(1): ماذا جرى؟ لا أرى جيدا..

العامل(2): شيء يطير العقل.. تراجعت الطائرة العربية وضربت بجناحها الطائرة الإسرائيلية (صوت انفجار هائل)

الجندي(3): إنها حركة بطولية..

العامل(1): ليحمي الله الطيار البطل!

الجندي(1): احترقت الطائرتان.. هل هما تسقطان؟

الطباخ: وا أسفي على طيارنا البطل!

العامل(2): أرى نارا تشتعل في منطقة دمر.. انظروا هناك.. أيوجـد مـصانع ؟

(يدخل جنود آخرون)

الجندي(2): ليس سوى بيوت الفلاحين.. (يسمع هدير بوق سيارة الإسعاف)

الجندي(3): لا تتجمعوا ليس هناك خير في التجمع.

الطباخ: (يلمح جنديا كان قد أوكله بتحريك الحلة) وأنت كيف تترك الحلـة دون تحريك؟ أيعود طيارونا الأبطال من المعركة ليأكلوا حساء ملتذعا؟ هيا جميعا إلى أعمالكم.. (ينزل الطيار الأول في مظلة) يا إلهي انظـروا لقـد نجـا الطيـار!

(يقتربون منه) أصوات كثيرة: ماذا جرى؟ حدثنا بما جرى..

الطيار الأول: ليس لدي وقت للحديث.. سأعود للمعركة..(يلتفت إلى طيار يستعد للإقلاع في طائرته) أنت أيها ألأخ.. لا تقلع! انزل من الطائرة وسلمني إياهـا..

سأعود للمعركة.. هل فيها ذخائر كافية؟ لو لم تنفذ مني الذخيرة فقـط!. سـأريهم هؤلاء الأوباش..

الطباخ: (يقبله) عد سالما وسأضع لك وجبة لم تذق مثلها في حياتك!(يسمع هدير الطائرة) مع السلامة (الجميع يلوحون) مع السلامة!

العامل(1): بلادنا فيها رجال! والله شعبنا فيه رجال!

الجندي (1): منذ مدة قبض على طيار إسرائيلي نزل في مظلة بعد أن احترقـت طائرته، وحين استجوب عرفوا أنه أميركي مرتزق، ولقد قال في اعترافـه إنهـم سيعطونه في الغارة على سوريا ثلاثمائة دولار!

العامل(2): آه! حقا! وفيم هذا الكرم لنا؟

الجندي(1): لأن طيارينا مجانين! (ضحك)

* * *

الفصل الثالث

المشهد الثاني

(منزل المقدم راشد.. عاد متهللا.. تستقبله زوجته وأبناؤه والعمة راضية بلهفة)

المقدم راشد: لقد نزلنا بهم نزلة وأي نزلة! جبناء، كم يخـشون المواجهـة!.. أي شباب لدينا؟ كم أنا فخور بهم.. إنهم لدي أعز من أبنائي.. كل واحد فيهم.. بكيـت إذ رأيتهم جميعا سالمين.. أسقطنا اثنتي عشرة طائرة.. ولقد ذهبنا إلـى المنـاطق التي تهشّمت فيها الطائرات ورأينا حطامها وجاء المصورون والـصحفيون.. إن الأهداف التي ضربت كلها طائشة.. كانوا يلقون القنابل بطريقة عشوائية ويولـون الأدبار..

أم حازم: إن شاء الله لم يصب أحد أذى..

المقدم راشد: فقط دمر بيت في منطقة دمر سقطت عليـه قنبلـة وقتلـت امـرأة وطفلين..

أم حازم: دمرت أيديهم المخربة! تعال اخلع ملابسك واسترح.

المقدم راشد: أي بطل هو الطيار سالم سلوم!.. لقد أسقط بمفرده طائرتين.

نبيل: وأنت يا أبي؟

المقدم راشد: أسقطت واحدة يا بني..

نبيل: (بأسف) لماذا يفوقك الطيار سلوم؟

المقدم راشد: إنه تلميذي ولا خير في تلميذ لا يفوق أستاذه..

نبيل: (يحاول الخروج)

المقدم راشد: إلى أين؟

نبيل: لأخبر رفاقي أنك أسقطت طائرة.

المقدم راشد: تعال استمع إلى قصة الطيار سلوم. (ليلى تجلس في حجر والـدها) لقد نفذت ذخيرته فلاحقته طائرة إسرائيلية وأدرك أنها ستضربه لا محالة فهاجمها بطائرته صادما إياها بجناح الطائرة ففجرها..

ليلى: وماذا حدث لطائرته؟

المقدم راشد: احترقت وهذه هي الطائرة الوحيدة التي خسرناها.

ليلى ونبيل: وهو! هل نجا؟

المقدم راشد: نعم نزل بالمظلة في المطار واستقل طـائرة أخـرى وعـاد إلـى المعركة، فأسقط طائرة ثانية قبل أن تولي الطائرات الإسرائيلية الأدبار.

نبيل: لم يعد يمتلك القدرة على كتم كل تلك الأنباء الخطيرة) دعني أخـرج إلـى رفاقي يا أبي وأخبرهم عن الطيار البطل سلوم..

المقدم راشد: إياك أن تغيب طويلا فأنا مشتاق لك ..

ليلى: وأنا أيضا أريد أن أخبر رفيقاتي..(تركض مهرولة وراء أخيها)

العمة راضية: أنا ذاهبة لأصلي وأشكر الله على النصر. (تخرج)

المقدم راشد: كان هناك العديد من رفاقنا القدامى ولقد أبدوا بطولة رائعة..

أم حازم:(تضمه، يتعانقان) أحمد الله على سلامتك!

المقدم راشد: أستطيع أن أستريح اليوم وغدا وبعد غد.. لقد أعطيت ضباطي جميعا إجازات كي يفرحوا مع عيالهم.. إنهم يستحقون بعد هذا التعب المضني..

أم حازم: هناك خبر سار بخصوص المقدم سميح..

المقدم راشد: هل أفرج عنه؟

أم حازم: نعم.. تلفنت لي زوجته..

المقدم راشد: سعيد هذا اليوم.. لقد ألقي عن كاهلي عبء ثقيل.. فلقد كنت دائمـا مهموما بشأن عياله..

* * *

الفصل الثالث

المشهد الثالث

(في منزل المقدم سميح.. غرفة استقبال عادية.. المقدم راشد بملابـس مدنيـة.. ضيفان يسلمان ويخرجان)

المقدم سميح: يقولون أنك لم تدخر جهدا في السعي للعفو عن السجناء..

المقدم راشد: قلت كلمة كما قالها آخرون.. كيف أحوالك؟

المقدم سميح: ماذا أخبرك؟ لقد جربت أنت السجن فلا حاجة بك لمزيد من العلم.

المقدم راشد: غفر الله لما مضى.

المقدم سميح: من جهتي لم أعد أتدخل بالسياسة.. لتنزل السماء على الأرض فلـن أبالي.. (غامزا من المقدم راشد) لأترك السياسة لسواي.. لقد خرب بيتي!..

المقدم راشد: خير!

المقدم سميح: أي خير؟ سيدي انتهى الأمر.. الأرض تميد تحت أقدامنا..

المقدم راشد: ليست هذه رؤيا سليمة للأمور.. إنها سلبية تماما..

المقدم سميح: قل عني بأني متشائم.. هذه هي الحقيقة بالنسبة لي.. كل همـي أن أنقذ بيتي من الخراب..

المقدم راشد: سأسعى لك لتعود إلى الجيش..

المقدم سميح: أنا! أعوذ بالله.. إنك لا تدري المدى الذي انفصمت فيه علاقتي عن هؤلاء الناس.

المقدم راشد: لا يجوز أن تخرج من السجن لتسجن نفسك في مثل هذه العزلة.. لو تعرف الفرح الذي يمتلك الإنسان الذي يتاح له أن يؤدي واجبه.

المقدم سميح: أنت أطيب مما ينبغي.. إنك متفائل جدا ووراءك نصر قريب.

المقدم راشد: النتيجة هي ما يهم.. أي حق لنا لنتهم ما دمنا نعمل؟

المقدم سميح: سيدي، لن تقنعني ولن أقنعك.. إنني لا أثق بهؤلاء الناس.

المقدم راشد: لنكفّ عن هذا الحديث.. يحكم الإنسان على الأفعال لا النوايا.. عندما نرى بادرة طيبة نشجعها، ولا ننكمش إزاءها لأن لنا رأيا مسبقا مغايرا.. أخبرني كيف حال العمل في المحل.. لقد كنت مضطرا أن أسلمه لعامر..

المقدم سميح: لو بقيت في السجن بضعة أشهر أخرى لما بقي محل..

المقدم راشد: ماذا تقول؟

المقدم سميح: كل الأرباح أنفقها عامر على نفسه..

المقدم راشد: كيف يمكن أن يحدث هذا؟ والعائلة!

المقدم سميح: تعيش بالدين.

المقدم راشد: ما كان لي علم بهذا..

المقدم سميح: هذا ما جرى.. هذا الابن نكبة علي!.

المقدم راشد: شيء مؤسف.. كنت أريد أن أقول لك.. بأنه لا يحق لـي أن أنـال ربحا ما دمت لا أعمل، ولهذا كنت أفكر في أن أسترد المبلغ الذي لي لأنني بحاجة إليه.. ولكن ما دامت الأمور كما هي فأنا لا أتعجل استرداده..

المقدم سميح: أتريد فصم الشركة؟

المقدم راشد: ليس الآن.. في أي وقت تشاء، فلربما كنت لا تعلـم أننـي لا آخـذ تعويضا في عملي الجديد..

المقدم سميح: أنت باق على راتبك القديم!

المقدم راشد: ولهذا أنا بحاجة لمبلغ إضافي كل شهر..

المقدم سميح: أسمع عجبا.. أنت تعمل وهم يقبضون الرواتب!

المقدم راشد: لنا أسوة بالفدائيين..

المقدم سميح: ذكّرتني.. لقد جاءني بعض الفدائيين وطلبوا مني أن أتوسط لأعرفهم عليك.. إنهم جد معجبون بك وبرفاقك..

المقدم راشد: إذا كانوا لا يزالون في البلد فتلفن لهم.. إن منزلك أقرب من منزلـي إليهم.. إنني حريص على التعرف إليهم بعد أن عرفت بطولاتهم..

المقدم سميح: حسنا! لحظة واحدة (يخرج)

* * *

الفصل الثالث

المشهد الرابع

(مكتب بالمطار.. يسمع هدير طائرات في الجو.. المقدم راشد متوتر الأعـصاب يتحدث بالتلفون)

المقدم راشد: آلو، آلو.. أعطني الرادار.. بسرعة.. لا يرد.. كيف!.. اطلب النمرة مرة أخرى.. ماذا؟ مستحيل.. خرجوا ليصطادوا العصافير! جميعهم؟ ألـيس مـن مسؤول واحد؟ إن هذا يبعث على الجنون.. (يسمع صوت انفجار) إنها غـارة.. ولا أحد ينبهنا.. ذهبوا ليصطادوا العصافير! إعدام! لا يستحقون سوى الإعدام!!

الطيار(1): ماذا نفعل سيدي؟ إن بعض زملائنا لم يعودوا بعد من إجازة العيد..

المقدم راشد: تلفن لهم ليلتحقوا حالا.. خذ هذه أرقام تلفوناتهم (يعطيه دفترا) هل الذخائر كافية في الطائرات؟

الطيار(1): سيدي، لم نتزود بكل ما طلبنا.. إن القنابل نمرة... لا تزال في مرفـأ اللاذقية.

المقدم راشد: استعملوا بديلا لها القنابل نمرة...

الطيار(1): ليست جيدة القذف يا سيدي..

المقدم راشد: أحسن من لا شيء.. بعد أن تتلفن لرفاقك..اذهب إلى مخزن الذخائر وانقل القنابل التي أشرت إليها.. سأتلفن لجنود المناوبة في المطبخ كي يساعدوك.

(يخرج الطيار الأول بعد أن يحيي)

المقدم راشد: مرتجل، كل شيء مرتجل.. في آخر لحظة.. آلو مطـبخ.. ليتـرك الجنود كل عمل ويذهبوا إلى مخزن الذخيرة لنقل القنابل مع الملازم سالم سلوم.. (يضع السماعة) (يرن التلفون) آلو ، نعم.. خمس طائرات جـاهزة؟ حـسنا.. وصل أربع طيارين؟ حسنا، سأقلع أنا بالخامسة.. ليستمر الجنود في تجهيز بـاقي الطائرات.. ولا تضيعوا وقتا طيروا! أربع طيارين لا ترد منزلهم؟ الخامس مسافر السادس في السينما!.. وصل ثلاثة آخرون؟ إنني قادم..

* * *

الفصل الثالث

المشهد الخامس

(منزل المقدم راشد.. البهو.. المقدم راشد في ثورة وحزن شـديدين.. أم حـازم مطرقة)

المقدم راشد: أربع طيارين من خيرة طيارينا قتلوا.. وأربع طـائرات احترقـت.. حتى يصطاد ضباط الرادار العصافير! أهناك إجرام يعـادل هـذا الإجـرام؟ إن الملازم سالم سلوم لم يفرح بالترقية.. ولن يعرس الملازم جميل حمـدي.. ولـن يعود الملازم خضر منصور إلى زوجته.. ولن تقر عين أم الملازم نعـيم جـابر بابنها في شيخوختها لأن ضباط الرادار كانوا يصطادون العصافير.. (أم حـازم تبكي وهي تذكر ابنها) فقدت أربع أبناء في يوم واحد، كل فرد فيهم يساوي فرقة بكاملها.. شجعان أذكياء لأن ضباط الـرادار يريـدون أن يتـسلوا ويـصطادوا العصافير.. وهل تدرين من كان رئيسهم؟ ذلك الرقيب الذي كان عنـدي ويكتـب عني التقارير.. والذي ضرب ابنُه ابني نبيل بالحجر فأدمـاه.. رفـض تقـديمهم للمجلس العسكري.. إنهم يتستّرون واحدهم على الآخر لأنهم يبنون إقطاعيات في الدولة ويبنون نفوذا.. وماذا لو قتل أربع طيارين ودمرت أربـع طـائرات؟ كلـه قضاء وقدر.. والمعركة يوم لك ويوم عليك.. لقد ثار الطيارون وضربوا ضـباط الرادار.. من ذا الذي يستطيع أن يمتلك أعصابه؟ أن موت أربع من رفاقهم أطار

صوابهم فتصرفوا بحمق.. واستفاد العقيد المباحثي من هذا الأمر ليقلـب الوضـع ويدينهم.. لماذا أصبحت لهم شعبية؟.. لماذا أصبحت أسماؤهم على كـل لـسان؟ يجب أن يحرقوهم.. يجب أن ينتقموا منهم.. ولكنني أقسم بالله أنني سأستقيل لـو مسوا أحدا منهم بأذى.. أستقيل!..

* * *

الفصل الثالث

المشهد السادس

(المكان نفسه.. المقدم جميل قاسم في زيارة للمقدم راشد)

المقدم جميل قاسم: يجب أن تتأكد أنني جئت لزيارتك غير مدفوع من أحد.. إنهـا زيارة صديق لصديق.. لقد آلمني كثيرا طلب استقالتك..

المقدم راشد: سيدي ماذا كنت تنتظر مني بعد أن عاقبوا الطيارين في نقلهم إلـى أعمال مكاتبية؟ أنحن نعمل أم نمثل مهزلة؟

المقدم جميل قاسم: سيدي أنت أدرى.. لقد حدث شبه تمرد إن لم يكـبح أدى إلـى الانقسام.. ليتك حضرت المجلس.. كنت أود لو أستدعيك.. لقد كنت ضد العقوبة.. إن مثل هؤلاء الطيارين الممتازين لا يجب أن يُحرم البلد منهم من أجـل سـاعة غضب. ولكن الأكثرية كانت مع العقوبة.

المقدم راشد: ما هذا الذي اسمع؟

المقدم جميل قاسم: سيدي قد يُحكم على إنسان بالإعدام لا لأنه يستحق ذلك ولكـن لتربية الآخرين به!..

المقدم راشد: لقد أصغيت إليك لأنني أحترمك.. لقد مررنا معا بتجربة واحدة ذات يوم فأنت تفهمني أكثر من سواك.. لقد أُجبرنا حينذاك على أن نمر من باب واطئ فأبينا وأصبت أنت وأصبت أنا بكثير من الكدمات على جباهنا لأننا أبينا أن نخترق

الباب كالزواحف.. حتى جرونا جرا إلى السجن، وهناك كـان لـي الـشرف أن أتعرف إليك على حقيقتك.. ولهذا أثق بك ولو كان غير ذلك لرفضت الحديث معك بعد ما جرى..

المقدم جميل قاسم: ولهذا أيضا أنا حريص على أن تكون معنا.. إنك نصر لنـا.. قوة نعتز بها.. كثيرا ما فكرت لماذا لا تكون في حزبنا..

المقدم راشد: سيدي، إنني أكبر سنا من أن أنسجم في أي حزب.. سأبقى أبدا فـي صفوف الشعب فهذا خير لي وخير له.. إنني أحترم الشعب وأرفـض أن أكـون وصيا عليه..

المقدم جميل قاسم: ولكننا أيضا في صفوف الشعب.. إن والدي كان فلاحا اهتـرأ عظمه في عهود الإقطاع..

المقدم راشد: هذا لا يمنع أن تتصرفوا بروح الوصي.. وإلا كنتم أكثر ثقة بالشعب مما أنتم عليه.. يبدو لي أن أزمة الاشتراكية في العالم أن هناك أناسا يأبون إلا أن يفتحوا الأبواب الصغيرة للشعب.. والشعب عملاق لا يمكن لـه أن يعبـر تلـك الأبواب دون أن يرتطم جبينه وترتطم إرادته.. إن استقالتي لا تغير من الأمر شيئا ما دام الشعب مستقيلا.. لا أثر لإرادته في كل ما تحيكون.. ولو كان للشعب إرادة لما سمح لما يجري ان يجري، ولعوقب من يستحق العقاب.. إن البادئ أظلم.. ان

من هدر دماء الطيارين بإهماله يبقى على رأس عمله آمنا مطمئنا ومـن غـضب يسرح..

المقدم جميل قاسم: إننا لم نسرحهم..

المقدم راشد: وأي تسريح أبلغ من أن تضع إنسانا في غير مكانه! أنعيش للقمـة؟ أنحن في عهد استقرار؟ أم أن إرادة الحل السلمي قد تغلبت عليكم؟

المقدم جميل قاسم: أبدا لا نفكر في هذا.

المقدم راشد: إن بينكم من يفكرون وأولهم العقيد المسؤول عن الرادار الذي كـان يوما رقيبا لدي ويكتب عني التقارير للمباحث المصرية.. الإنسان يحتمل كل شيء إلا أن يقرر مصيره عقل مباحثي..

المقدم جميل قاسم: لا أشك أن بيننا مخربون..

المقدم راشد: إن قواهم كبيرة لأنكم حرمتم الشعب من نصرتكم..

المقدم جميل قاسم: أمصر أنت على استقالتك؟

المقدم راشد: لم أكتبها لأغير رأيي فيما بعد..

المقدم جميل قاسم: خسارتنا بك كبيرة..

المقدم راشد: لن تخسروا كثيرا بخسارتي ما دامت إرادتي مقيدة..

المقدم جميل قاسم: وتعتزل؟ هل الاعتزال أفضل؟

المقدم راشد: من قال لك أنني أعتزل، أجد مكاني في صفوف الفدائيين.

المقدم جميل قاسم: ولكنك طيار..

المقدم راشد: الفدائيون لا يهزلون..

المقدم جميل قاسم: (ناهضا) ليس لي بعد أن أقول شيئا.. هل تطلب مني خدمة؟

المقدم راشد: أن تكسر ورفاقك الأبواب الضيقة..!

* * *

الفصل الثالث

المشهد السابع

(على الفطور، أم حازم تسكب الشاي في كوب زوجها وتقدمه في صـمت، ثـم تسكب في كوبها وتحركه ببطء وترشف منه وهي تتأمل النافذة في سهوم.. المقدم راشد في ملابس السفر

المقدم راشد: ألدينا طعام لليوم؟

أم حازم: نعم زاد من البارحة.

المقدم راشد: اقترب العيد الكبير والصغيران بحاجة إلى الأحذية.. (أم حازم تذكر ابنها الأكبر وترتجف شفتاها على الفنجان) أتذهبين اليوم إلى السوق؟ (لا تجيب وتتقاطر دموعها على وجنتيها) أتذهبين؟ (تشهق شهقة ثم تتـرك المائـدة وهـي تبكي.. يمسكها من ذراعها ويضمها ويقبلها.. تستجيب إليه وتقبل عشقه)

المقدم راشد: إنني أحبك، هل تسمعين يا حبيبتي إنني احبك..

أم حازم: وأنا أحبك، أحبك، أحبك..

المقدم راشد: لا يجب أن نسمح لشيء أن يفرق بيننا.. كل شيء نحتمله في الحياة إن كان أحدنا يحب الآخر.. يجب أن تكوني دائما في صفي وتثقي بي يا حبيبتي.

أم حازم: إنني دائما معك.. لقد أسلمت نفسي إلى وجدانك ولم أندم على ذلك أبدا.

المقدم راشد: كم أنا نادم أن حرمتك العزاء.. ليس لدي الآن ما أفعله في تعزيتك، فحين حررت فكرك حرمتك من العزاء..

أم حازم: هل أنت نادم على تحرير فكري؟

المقدم راشد: كلا ولكنني أدركت فجأة أن هناك قلوبا هشة يجب أن تواسى بأسلوب آخر غير الفكر.

أم حازم: ليس قلبي هشا وأرفض العزاء..

المقدم راشد: سأعوضك يا حبيبتي أطفالا آخرين!

أم حازم: لن يعزيني عن حازم طفل آخر، لن يعزيني عنه إلا النصر!

المقدم راشد: سننتصر يا حبيبتي، نحن نملك كل عناصر النصر، النظرية المتقدمة، والقوى البشرية.. المستقبل معنا يا حبيبتي.. ومع ذلك فمن الأفضل أن يكون لك ما يشغلك ويملأ وقتك في غيابي ففي هذا عزاء كبير.

أم حازم: أريد أن أشغل وقتي في تحقيق النصر.. لقد فكرت طويلا.. فإذا كان على العالم أن يخوض معاركه الصغيرة في تصفية الاستعمار، فعلينا أن نحتمل نصيبنا من هذه المعركة.. ولنخضها رجالا ونساء وبكل ما نملك من قوى وطاقات.. لست أرفض الاّ الهدر والدجل.. إنني مستعدة أن أقدم ضريبة الدم وأنا

أعني ما أقول.. إنني لا أحتمل أن تعود منتصرا وتتخذ لك زوجـات أخريـات.. أريدك لي وحدي، وحدي، (تقبله)

المقدم راشد: ولكن من قال لك أنني أتخذ زوجة أخرى؟

أم حازم: حين يدفع الرجل وحده ضريبة الدم فعلـى المـرأة أن تحتمـل تعـدد الزوجات إن كانت منصفة.

المقدم راشد: ثقي أنني لن افعل ذلك وعندي أم حازم.

أم حازم: حتى في هذه الحال فإنني أشعر أنني أختلس سعادة للأخريات الحق بها..

المقدم راشد: ونبيل وليلى ما نفعل بهما؟

أم حازم: الدولة الاشتراكية مسؤولة عنهما.. أما أنا فرجلي ورجلك معا.

المقدم راشد: وإن فقدتك؟

أم حازم:: تتعزى عني بسواي، فلن يكون حزنك علي بأقسى من حزنـي علـى حازم..

المقدم راشد: وإن فقدتني؟..

أم حازم: ما أحمقك! أهناك حاجز بين الحياة والموت؟.. الحب أقـوى مـن كـل شيء، من كل شيء.. ليس في الدنيا قوة تنزع مني أحلامي.. تصمت أيها اللعـين حين أقول لك تتعزى بسواي.. أترى أن المرأة وحدها هي القادرة على الحب!!..

انتهت